طلاقة القدرة الإلهية

في العطاء والمنع

جمع وترتيب

من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

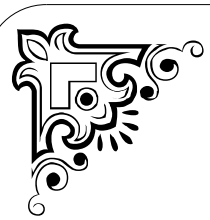

مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ أَجَلُّ الْغَايَاتِ

إِنَّ مَعْرِفَةَ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ مِنْ أَجَلِّ الْغَايَاتِ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَجَلَّهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَأَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنْ يَعْبُدَ مَوْلَاهُ، وَأَنْ يَصْرِفَ جَمِيعَ الْعِبَادَاتِ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا مُؤَسَّسٌ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بِرَبِّهِمْ.

وَقَدْ فَطَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَلْقَ عَلَىٰ إِثْبَاتِ وُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، فَهَذِهِ فِطْرَةٌ قَدْ فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَّا إِعْمَالَ نَظَرٍ مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ وُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؛ وَلَكِنَّ الْفِطْرَةَ قَدْ يُغَشِّيهَا مَا يُغَشِّيهَا مِمَّا يَرِينُ عَلَيْهَا، فَتَحْتَاجُ -حِينَئِذٍ- إِلَىٰ إِعْمَالِ النَّظَرِ، وَإِلَىٰ بَسْطِ أَسْبَابِ الْفِكْرِ فِي الْكَوْنِ؛ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يَعْمَىٰ عَنْهَا إِلَّا مَنْ طَمَسَ اللهُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْغِنَىٰ» - الِاثْنَيْنِ ١٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٤-٦-٢٠١٢م.

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْغَنِيُّ الْجَوَادُ

«مِنْ صِفَاتِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: صِفَةُ الْغِنَىٰ؛ فَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ الَّذِي كَمُلَ فِي غِنَاهُ، فَلَهُ الْغِنَىٰ الْمُطْلَقُ بِكُلِّ وَجْهٍ وَاعْتِبَارٍ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ﴾ [يونس: ٦٨].

هُوَ الْغَنِيُّ لِكَمَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ الَّتِي لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا غَنِيًّا؛ فَإِنَّ غِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَكَمَا لَا يَكُونُ إِلَّا خَالِقًا رَازِقًا مُحْسِنًا جَوَادًا بَرًّا كَرِيمًا رَحِيمًا؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا غَنِيًّا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَكُلُّ مَا نَافَىٰ غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ[1]:

وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ؛ فَغِنَاهُ ذَا ... تِيٌّ لَهُ كَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ

فَمِنْ تَمَامِ غِنَاهُ أَنَّهُ كَامِلُ الْأَوْصَافِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِيهِ نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ

---

(١) «الكافية الشافية»: (ص: ٧١١، بيت ٣٢٦١).

لَكَانَ فِيهِ نَوْعُ افْتِقَارٍ إِلَىٰ ذَلِكَ الْكَمَالِ؛ بَلْ لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَمِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ لَهُ كَمَالُهَا.

وَمِنْ سَعَةِ غِنَاهُ: أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالرَّحْمَةَ بِيَدِهِ، وَأَنَّ جُودَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ مُتَوَاصِلٌ فِي جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ وَالْأَوْقَاتِ، وَأَنَّ يَدَهُ سَحَّاءُ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَأَنَّ خَيْرَهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ مِدْرَارٌ»[1]. (*).

«**وَمِنْ صِفَاتِهِ -تَعَالَىٰ-: الْجُودُ**، وَهُوَ الْجَوَادُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جُودِهِ؛ فَهُوَ الْجَوَادُ لِذَاتِهِ، كَمَا أَنَّهُ الْحَيُّ لِذَاتِهِ، الْعَلِيمُ لِذَاتِهِ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لِذَاتِهِ، فَجُودُهُ الْعَالِي مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَهُوَ وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ ذَاتِهِ الْكَمَالِيَّةِ، عَطَاؤُهُ غَيْرُ مَجْذُوذٍ، ﷻ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، يُحِبُّ الْجُودَ وَالْعَطَاءَ وَالْبِرَّ، الْجُودُ كُلُّهُ لَهُ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيْهِ أَنْ يَجُودَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَنْ يُوسِعَهُمْ فَضْلًا، وَيَغْمُرَهُمْ إِحْسَانًا وَجُودًا، وَيُتِمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَيُضَاعِفَ لَهُمْ مِنَّتَهُ؛ فَجُودُهُ مَمْدُودٌ، وَفَضْلُهُ غَيْرُ مَحْدُودٍ، أَجْزَلَ لَنَا الْعَطَايَا الْفَاخِرَةَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا النِّعَمَ الْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ.

فَجُودُهُ جَلَّوَعَلَا وَاسِعٌ، لَا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ، وَجُودُ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ فِي جَنْبِ جُودِهِ أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ فِي جِبَالِ الدُّنْيَا وَرِمَالِهَا، وَلَوْ كَانَ جُودُ الْعِبَادِ عَلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَكُلُّ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجُودِ؛ لَكَانَتْ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ جُودِهِ دُونَ نِسْبَةِ قَطْرَةٍ إِلَىٰ الْبَحْرِ؛ بَلْ كُلُّ جُودٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ جُودِهِ أَقَلُّ مِنْ قَطْرَةٍ

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٦٢-٦٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْغِنَىٰ» - الِاثْنَيْنِ ١٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٤-٦-٢٠١٢م.

فِي بِحَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ مِنْ جُودِهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّمَا يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ، وَجُودُهُ لَا يُنَاقِضُ حِكْمَتَهُ، وَيَضَعُ عَطَاءَهُ مَوَاضِعَهُ؛ وَإِنْ خَفِيَ عَلَىٰ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّ تِلْكَ مَوَاضِعُهُ، فَاللهُ يَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ فَضْلَهُ؛ فَلَيْسَ الْجَوَادُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ إِلَّا هُوَ.

جُودُ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْجُودُ الْحَقُّ، وَهُوَ -أَيْ: جُودُهُ تَعَالَىٰ- الْجُودُ الْحَقُّ، مِنْهُ جُودُ كُلِّ جَوَادٍ؛ فَجُودُ كُلِّ جَوَادٍ مِنْ جُودِهِ.

وَمَحَبَّتُهُ -تَعَالَىٰ- لِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْبِرِّ وَالْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْخَلْقِ، أَوْ يَدُورُ فِي أَوْهَامِهِمْ؛ فَلَا مُنْتَهَىٰ لِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَهُوَ يُحِبُّ الْجُودَ عَلَىٰ عِبَادِهِ»[1].(*).

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٢٨٣-٢٨٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْحِكْمَةُ، الْجُودُ» - السَّبْتُ ١٩ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٩-٦-٢٠١٢م.

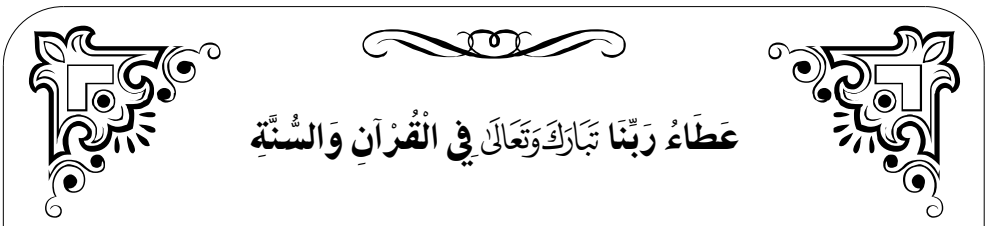

عَطَاءُ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

إِنَّ عَطَاءَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **لَا حَدَّ لَهُ وَلَا مُنْتَهَى**؛ فَجَمِيعُ مَا فِيهِ الْعَالَمُ الْعُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ مِنْ حُصُولِ الْمَنَافِعِ وَالْمَحَابِّ وَالْمَسَارِّ وَالْخَيْرَاتِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْهُ وَمِنْ رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا أَنَّ مَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالنِّقَمِ وَالْمَخَاوِفِ وَالْأَخْطَارِ وَالْمَضَارِّ فَإِنَّهَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ.

لَقَدْ عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَسَّرَ لَهُمُ الْمَنَافِعَ وَالْمَعَايِشَ وَالْأَرْزَاقَ، وَرَبَطَهَا بِأَسْبَابٍ مُيَسَّرَةٍ وَطُرُقٍ مُسَهَّلَةٍ؛ فَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا.

وَعَلِمَ -تَعَالَىٰ- مِنْ مَصَالِحِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَقَدَّرَ لَهُمْ مِنْهَا مَا لَا يُرِيدُونَ وَمَا لَا يَقْدِرُونَ، وَرُبَّمَا أَجْرَىٰ عَلَيْهِمْ مَكَارِهَ تُوصِلُهُمْ إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَ.

بَلْ رَحِمَهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالْآلَامِ، فَجَعَلَ الْآلَامَ كُلَّهَا خَيْرًا لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقُومُ بِوَظِيفَةِ الصَّبْرِ؛ «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ**

ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»(١)، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».(*).

لَقَدْ بَيَّنَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ عَطَاءَهُ جَلَّ وَعَلَا أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْصَى أَوْ يُسْتَقْصَى، وَأَخْبَرَ رَبُّنَا ﷻ أَنَّهُ أَعْطَى الْأَنَاسِيَّ مِنْ كُلِّ مَا طَلَبُوهُ، وَإِنْ يَعُدُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ لَا يُطِيقُوا عَدَّهَا وَلَا إِحْصَاءَهَا، وَلَا الْقِيَامَ بِشُكْرِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ عَلَىٰ اتِّسَاعِهِمَا وَعِظَمِهِمَا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وَهُوَ: الْمَطَرُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّحَابِ، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَاءِ مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ رِزْقًا لَكُمْ وَرِزْقًا لِأَنْعَامِكُمْ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أَيِ: السُّفُنَ وَالْمَرَاكِبَ؛ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يَسَّرَ لَكُمْ صَنْعَتَهَا، وَأَقْدَرَكُمْ عَلَيْهَا، وَحَفِظَهَا عَلَىٰ تَيَّارِ الْمَاءِ لِتَحْمِلَكُمْ وَتَحْمِلَ تِجَارَاتِكُمْ وَأَمْتِعَتَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ تَقْصِدُونَهُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «فَتْحُ الرَّحِيمِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْأَرْبِعَاءُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٤هـ| ٣١-٧-٢٠١٣م.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ لِتَسْقِيَ حُرُوثَكُمْ وَأَشْجَارَكُمْ، وَتَشْرَبُوا مِنْهَا، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ لَا يَفْتُرَانِ، وَلَا يَنِيَانِ، يَسْعَيَانِ لِمَصَالِحِكُمْ مِنْ حِسَابِ أَزْمِنَتِكُمْ، وَمَصَالِحِ أَبْدَانِكُمْ، وَحَيَوَانَاتِكُمْ، وَزُرُوعِكُمْ، وَثِمَارِكُمْ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ مُبْصِرًا لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أَيْ: أَعْطَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ أَمَانِيُّكُمْ وَحَاجَتُكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ إِيَّاهُ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ؛ مِنْ أَنْعَامٍ، وَآلَاتٍ، وَصِنَاعَاتٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ فَضْلًا عَنْ قِيَامِكُمْ بِشُكْرِهَا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ أَيْ: هَذِهِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ظَالِمٌ مُتَجَرِّئٌ عَلَىٰ الْمَعَاصِي، مُقَصِّرٌ فِي حُقُوقِ رَبِّهِ، كَفَّارٌ لِنِعَمِ اللهِ، لَا يَشْكُرُهَا وَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا؛ إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ فَشَكَرَ نَعِمَهُ، وَعَرَفَ حَقَّ رَبِّهِ، وَقَامَ بِهِ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَصْنَافِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلٌ، يَدْعُو اللهُ بِهِ الْعِبَادَ إِلَىٰ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ وَذِكْرِهِ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي سُؤَالِهِ وَدُعَائِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كَمَا أَنَّ نِعَمَهُ تَتَكَرَّرُ عَلَيْهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ»[1].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٩٣-٤٩٤).

قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

[النمل: ٦٠-٦٤].

«﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْمَلَائِكَةِ، ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أَيْ: لِأَجْلِكُمْ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أَيْ: بَسَاتِينَ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَيْ: حُسْنِ مَنْظَرٍ؛ مِنْ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا، وَتَنَوُّعِهَا، وَحُسْنِ ثِمَارِهَا، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لَوْ لَا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْكُمْ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ حَتَّىٰ يُعْبَدَ مَعَهُ وَيُشْرَكَ بِهِ؟!!

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بِهِ غَيْرَهُ، وَيُسَوُّونَ بِهِ سِوَاهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمُنْزِلُ الرِّزْقِ.

هَلِ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ النَّاقِصَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، الَّتِي لَا فِعْلَ مِنْهَا وَلَا رِزْقَ وَلَا نَفْعَ خَيْرٌ، أَمِ اللهُ الَّذِي جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا الْعِبَادُ، وَيَتَمَكَّنُونَ مِنَ السُّكْنَىٰ، وَالْحَرْثِ، وَالْبِنَاءِ، وَالذَّهَابِ وَالْإِيَابِ، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أَيْ: جَعَلَ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ أَنْهَارًا يَنْتَفِعُ بِهَا الْعِبَادُ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ،

وَشُرْبِهِمْ، وَشُرْبِ مَوَاشِيهِمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أَيْ: جِبَالًا تُرْسِيهَا وَتُثَبِّتُهَا لِئَلَّا تَمِيدَ، وَتَكُونُ أَوْتَادًا لَهَا لِئَلَّا تَضْطَرِبَ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الْبَحْرِ الْمَالِحِ وَالْبَحْرِ الْعَذْبِ ﴿حَاجِزًا﴾ يَمْنَعُ مِنَ اخْتِلَاطِهِمَا فَتَفُوتُ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلَ مَجْرَىٰ الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مُبْعَدَةً عَنِ الْبِحَارِ، فَيَحْصُلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا؟!!

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُعْدَلَ بِهِ اللهُ، وَيُشْرَكَ بِهِ مَعَهُ؟!!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ فَيُشْرِكُونَ بِاللهِ تَقْلِيدًا لِرُؤَسَائِهِمْ؛ وَإِلَّا فَلَوْ عَلِمُوا حَقَّ الْعِلْمِ لَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

هَلْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ الَّذِي أَقْلَقَتْهُ الْكُرُوبُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْمَطْلُوبُ، وَاضْطُرَّ لِلْخَلَاصِ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ؟!! وَمَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ -أَيِ: الْبَلَاءَ وَالشَّرَّ وَالنِّقْمَةَ- إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ؟!! وَمَنْ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ يُمَكِّنُكُمْ مِنْهَا، وَيَمُدُّ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَيُوصِلُ إِلَيْكُمْ نِعَمَهُ، وَتَكُونُونَ خُلَفَاءَ مَنْ قَبْلَكُمْ، كَمَا أَنَّهُ سَيُمِيتُكُمْ وَيَأْتِي بِقَوْمٍ بَعْدَكُمْ؟!!

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ؟!! لَا أَحَدَ يَفْعَلُ مَعَ اللهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ حَتَّىٰ بِإِقْرَارِكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ؛ وَلِهَذَا كَانُوا إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُقْتَدِرُ عَلَىٰ دَفْعِهِ وَإِزَالَتِهِ.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أَيْ: قَلِيلٌ تَذَكُّرُكُمْ وَتَدَبُّرُكُمْ لِلْأُمُورِ الَّتِي إِذَا تَذَكَّرْتُمُوهَا ادَّكَرْتُمْ، وَرَجَعْتُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ؛ وَلَكِنَّ الْغَفْلَةَ وَالْإِعْرَاضَ شَامِلٌ لَكُمْ؛ فَلِذَلِكَ مَا ارْعَوَيْتُمْ وَلَا اهْتَدَيْتُمْ.

مَنْ هُوَ الَّذِي يَهْدِيكُمْ حِينَ تَكُونُونَ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ حَيْثُ لَا دَلِيلَ وَلَا مَعْلَمَ يُرَىٰ، وَلَا وَسِيلَةَ إِلَىٰ النَّجَاةِ إِلَّا هِدَايَتُهُ لَكُمْ، وَتَيْسِيرُهُ الطَّرِيقَ، وَجَعَلَ مَا جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَهْتَدُونَ بِهَا؟!!

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيِ الْمَطَرِ، فَيُرْسِلُهَا، فَتُثِيرُ السَّحَابَ، ثُمَّ تُؤَلِّفُهُ، ثُمَّ تَجْمَعُهُ، ثُمَّ تُلْقِحُهُ، ثُمَّ تُدِرُّهُ، فَيَسْتَبْشِرُ بِذَلِكَ الْعِبَادُ قَبْلَ نُزُولِ الْمَطَرِ؟!!

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ، أَمْ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ؟!! فَلِمَ أَشْرَكْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَعَبَدْتُمْ سِوَاهُ؟!!

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾: تَعَاظَمَ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ شِرْكِهِمْ وَتَسْوِيَتِهِمْ بِهِ غَيْرَهُ.

مَنْ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ، وَيُنْشِئُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَيَبْتَدِئُ خَلْقَهَا، ثُمَّ يُعِيدُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ؟!!

وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ؟!!

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ؟!!

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أَيْ: حُجَّتَكُمْ وَدَلِيلَكُمْ عَلَىٰ مَا قُلْتُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ وَإِلَّا فَبِتَقْدِيرِ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ لَهَا مُشَارَكَةٌ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَذَلِكَ مُجَرَّدُ دَعْوَىٰ صَدِّقُوهَا بِالْبُرْهَانِ؛ وَإِلَّا فَاعْرِفُوا أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ لَا حُجَّةَ لَكُمْ؛ فَارْجِعُوا إِلَىٰ الْأَدِلَّةِ الْيَقِينِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِجَمِيعِ

التَّصَرُّفَاتِ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يُصْرَفَ لَهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ»(١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

«وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ مَنَافِعِ الْعِبَادِ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ»(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص: ٩].

«أَمْ هُمْ يَمْلِكُونَ خَزَائِنَ فَضْلِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ، الْوَهَّابِ مَا يَشَاءُ مِنْ رِزْقِهِ وَفَضْلِهِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ؟!!»(٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

«﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أَيْ: مَمْنُوعًا مِنْ أَحَدٍ، بَلْ جَمِيعُ الْخَلْقِ رَاتِعُونَ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ»(٤).

وَإِذَا كَانَتْ هِبَاتُ اللهِ وَعَطَايَاهُ فِي الدُّنْيَا لَا نِهَايَةَ لَهَا؛ فَكَذَلِكَ مِنَنُهُ وَعَطَايَاهُ فِي الْآخِرَةِ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

«﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ أَيْ: حَصَلَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ وَالْفَوْزُ؛ ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧١٢-٧١٣).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٢٦٣).

(٣) «التفسير الميسر» (ص: ٤٥٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٢٣).

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أَيْ: مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَاللَّذَّةِ الْعَالِيَةِ فَإِنَّهُ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، غَيْرُ مُنْقَطِعٍ بِوَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ -نَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ-»(١).

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

«﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ أَيِ: الَّذِينَ اتَّقَوْا سُخْطَ رَبِّهِمْ بِالتَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ، وَالِانْكِفَافِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ فَلَهُمْ مَفَازٌ وَمَنْجًى، وَبُعْدٌ عَنِ النَّارِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَفَازِ لَهُمْ حَدَائِقُ، وَهِيَ الْبَسَاتِينُ الْجَامِعَةُ لِأَصْنَافِ الْأَشْجَارِ الزَّاهِيَةِ فِي الثِّمَارِ الَّتِي تَتَفَجَّرُ بَيْنَ خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ، وَخَصَّ الْعِنَبَ لِشَرَفِهَا وَكَثْرَتِهَا فِي تِلْكَ الْحَدَائِقِ.

وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجَاتٌ عَلَىٰ مَطَالِبِ النُّفُوسِ ﴿كَوَاعِبَ﴾ وَهِيَ: النَّوَاهِدُ اللَّاتِي لَمْ تَتَكَسَّرْ ثُدِيُّهُنَّ مِنْ شَبَابِهِنَّ، وَقُوَّتِهِنَّ وَنَضَارَتِهِنَّ، وَالْأَتْرَابُ: اللَّاتِي عَلَىٰ سَنٍّ وَاحِدٍ مُتَقَارِبٍ، وَمِنْ عَادَةِ الْأَتْرَابِ أَنْ يَكُنَّ مُتَآلِفَاتٍ مُتَعَاشِرَاتٍ، وَذَلِكَ السِّنُّ الَّذِي هُنَّ فِيهِ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً أَعْدَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّبَابِ.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أَيْ: مَمْلُوءَةً مِنْ رَحِيقٍ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أَيْ: كَلَامًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ أَيْ: إِثْمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦]، وَإِنَّمَا أَعْطَاهُمُ اللهُ هَذَا الثَّوَابَ الْجَزِيلَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي وَفَّقَهُمُ اللهُ لَهَا، وَجَعَلَهَا سَبَبًا لِلْوُصُولِ إِلَىٰ كَرَامَتِهِ»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٥٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٦٧).

وَلَوِ اسْتَقْصَيْنَا الْأَدِلَّةَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ هِبَاتِ اللهِ ﷻ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ لَا نَكَادُ نُحْصِيهَا كَثْرَةً وَتَعَدُّدًا، وَتَنَوُّعًا وَاخْتِلَافًا؛ مِنْ كَثْرَتِهَا وَتَعَدُّدِهَا وَاخْتِلَافِهَا، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ أُعْطِيَ رِزْقًا إِلَّا وَاللهُ هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ وُهِبَ نِعْمَةً إِلَّا وَاللهُ هُوَ الَّذِي وَهَبَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- حِينَ سُئِلَ مُوسَىٰ عليه السلام عَنِ اللهِ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: ٥٠].

«أَجَابَ مُوسَىٰ بِجَوَابٍ شَافٍ كَافٍ وَاضِحٍ، فَقَالَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ أَيْ: رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ خَلْقَهُ اللَّائِقَ بِهِ، الدَّالَّ عَلَىٰ حُسْنِ صَنْعَةِ مَنْ خَلَقَهُ؛ مِنْ كِبَرِ الْجِسْمِ، وَصِغَرِهِ، وَتَوَسُّطِهِ، وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ هَدَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَىٰ مَا خَلَقَهُ لَهُ، وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ الْعَامَّةُ الْمُشَاهَدَةُ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ تَجِدُهُ يَسْعَىٰ لِمَا خُلِقَ لَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَفِي دَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْهُ؛ حَتَّىٰ إِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- أَعْطَىٰ الْحَيَوَانَ الْبَهِيمَ مِنَ الْعَقْلِ مَا يَتَمَكَّنُ بِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾؛ فَالَّذِي خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَعْطَاهَا خَلْقَهَا الْحَسَنَ الَّذِي لَا تَقْتَرِحُ الْعُقُولُ فَوْقَ حُسْنِهِ، وَهَدَاهَا لِمَصَالِحِهَا هُوَ الرَّبُّ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ؛ فَإِنْكَارُهُ إِنْكَارٌ لِأَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ وُجُودًا، وَهُوَ مُكَابَرَةٌ وَمُجَاهَرَةٌ بِالْكَذِبِ؛ فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَنْكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَعْلُومَةِ مَا أَنْكَرَ؛ كَانَ إِنْكَارُهُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ»(١).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٩٠).

وَذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْضَ هِبَاتِهِ عَلَى أَفْضَلِ عِبَادِهِ؛ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَأَخْبَرَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا عَنْ هِبَتِهِ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِ عليهم السلام الْوَلَدَ الصَّالِحَ، فَقَالَ -تَعَالَىٰ- عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وَقَالَ عز وجل عَنْ نَبِيِّهِ دَاوُدَ عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا عَنْ نَبِيِّهِ زَكَرِيَّا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَالْأَهْلُ هِبَةٌ، قَالَ -تَعَالَىٰ- عَنْ نَبِيِّهِ أَيُّوبَ عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [ص: ٣٢].

وَالْأَخُ الصَّالِحُ هِبَةٌ، قَالَ -تَعَالَىٰ- عَنْ نَبِيِّهِ مُوسَىٰ عليه السلام حِينَ أَرْسَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

وَالنُّبُوَّةُ هِبَةٌ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا عَنْ نَبِيِّهِ مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء: ٢١].

وَأَخْبَرَ عَنْ نَبِيِّهِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عليهما السلام فَقَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩].

وَقَالَ عز وجل عَنْ هِبَاتِهِ لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٥٠].

وَذَكَرَ رَبُّنَا الْوَهَّابُ مِنَّتَهُ، وَجَزِيلَ عَطَائِهِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

«يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ- لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أَيِ: الْخَيْرَ الْكَثِيرَ، وَالْفَضْلَ الْغَزِيرَ الَّذِي مِنْ جُمْلَتِهِ: مَا يُعْطِيهِ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: الْكَوْثَرُ، وَمِنَ الْحَوْضِ طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ فِي كَثْرَتِهَا وَاسْتِنَارَتِهَا، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ: ٥].

«وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- مِنْ أَنْوَاعِ الْإِنْعَامِ فِي الْآخِرَةِ، فَتَرْضَىٰ بِذَلِكَ»(٢).

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ عَطَاءَاتِ رَبِّنَا الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى فِي سُنَّتِهِ الْمُطَهَّرَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ؛ مِنْهَا: مَا «أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ»**(٣).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١١٠٥).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٥٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب تفسير القرآن: باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، (٤٦٨٤)، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب الزكاة، (٩٩٣).

«**لَا يَغِيضُهَا**» أَيْ: لَا يُنْقِصُهَا.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» أَيْ: دَائِمَةُ الصَّبِّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَسَحَّ الْمَاءُ سَحًّا، أَيْ: سَالَ مِنْ فَوْقَ.

فَنَبَّهَ ﷺ بِهَذَا اللَّفْظِ مِنْ حَيْثُ الِاشْتِقَاقُ اللُّغَوِيُّ عَلَىٰ مَعَانٍ دَقِيقَةٍ؛ فَمِنْهَا:

-أَنَّهُ وَصَفَ يَدَ اللهِ فِي الْإِعْطَاءِ بِالتَّفَوُّقِ وَالِاسْتِعْلَاءِ؛ فَإِنَّ السَّحَّ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَلٍ.

-ثُمَّ أَشَارَ إِلَىٰ أَنَّهَا هِيَ الْمُعْطِيَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنًىٰ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا انْصَبَّ مِنْ فَوْقَ انْصَبَّ بِسُهُولَةٍ وَعَفْوٍ.

-ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَىٰ جَزَالَةِ عَطَايَاهُ -سُبْحَانَهُ- وَغَزَارَتِهَا؛ لِأَنَّ السَّحَّ يُسْتَعْمَلُ فِيمَا ارْتَفَعَ عَنِ الْقَطْرِ وَبَلَغَ حَدَّ السَّيَلَانِ، يُقَالُ: مَطَرٌ سَحَّاحٌ، أَيْ: يَسُحُّ شَدِيدًا.

-وَأَشَارَ -أَيْضًا- إِلَىٰ أَنَّهُ لَا مَانِعَ لِعَطَائِهِ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا أَخَذَ فِي الِانْصِبَابِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّهُ.

-ثُمَّ وَصَفَ السَّحَّ بِالدَّوَامِ تَشْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّهُ لَا انْقِطَاعَ لِمَادَّةِ عَطَائِهِ.

«**إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا**» أَيْ: لَا يُنْقِصُهَا نَفَقَةٌ، «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» أَيْ: دَائِمَةُ الصَّبِّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

فَيَمِينُ اللهِ شَدِيدَةُ الِامْتِلَاءِ بِالْخَيْرِ لَا يُنْقِصُهَا نَفَقَةٌ، دَائِمَةُ الصَّبِّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهَذَا الْإِنْفَاقُ الْهَائِلُ الْكَثِيرُ الْمُسْتَمِرُّ الدَّائِمُ بِغَيْرِ تَوَقُّفٍ لَمْ يُنْقِصْ مَا فِي يَدِهِ -تَعَالَىٰ-، وَلَا يُحْصِيهِ إِلَّا الَّذِي أَعْطَاهُ جَلَّ وَعَلَا.

وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ عِظَمَ افْتِرَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وَقَدْ هَدَّدَهُمُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ -سُبْحَانَهُ-: أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِدُعَائِهِ، وَيَعِدُهُمْ بِإِجَابَةِ دَعْوَاتِهِمْ، وَإِسْعَافِهِمْ بِجَمِيعِ مُرَادَاتِهِمْ، وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا سَأَلُوهُ وَمَا لَمْ يَسْأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ وَمَنَحَهُمْ مَا مَنَحَهُمْ بِمُجَرَّدِ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ وَكَرَمِهِ الْعَمِيمِ.

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ أَوَّلُ الْخَلْقِ وَآخِرُهُمْ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوهُ، فَأَعْطَىٰ كُلًّا مِنْهُمْ مَا سَأَلَهُ وَمَا بَلَغَتْ أَمَانِيُّهُ؛ مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ؛ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه -فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»(١).

فَانْظُرْ إِلَىٰ هَذَا الْكَرَمِ الْفَيَّاضِ؛ فَعَطَاؤُهُ الْجَمُّ لَا يَنْقُصُ بِكَثْرَةِ الْعَطَايَا وَإِنْ بَلَغَتْ أَبْلَغَ الْمَبَالِغِ، وَوصَلَتْ إِلَىٰ حَدٍّ يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ، وَيَضِيقُ الذِّهْنُ عَنْ تَصَوُّرِهِ، وَتَقْصُرُ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِهِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يَنْقُصُ الْبَتَّةَ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب البر والصلة والآداب، (٢٥٧٧).

فَإِنَّ الْبَحْرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ إِبْرَةٌ ثُمَّ أُخْرِجَتْ؛ لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْبَحْرِ بِذَلِكَ شَيْءٌ، «**مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»؛ فَإِنَّ الْبَحْرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ إِبْرَةٌ ثُمَّ أُخْرِجَتْ؛ لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْبَحْرِ بِذَلِكَ شَيْءٌ، وَكَذَلِكَ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ شَرِبَ مِنْهُ عُصْفُورٌ -مَثَلًا- فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ الْبَتَّةَ.

فَنِسْبَةُ مَا يَسْأَلُونَهُ كُلُّهُمْ إِيَّاهُ فَيُعْطِيهِمْ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ كَلَا نِسْبَةَ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْثَالِ وَأَبْلَغِهَا وَأَعْظَمِهَا تَقْرِيبًا إِلَىٰ الْأَفْهَامِ»[1].(*).

۞۞۞

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٦٣-٦٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْغِنَىٰ» - الِاثْنَيْنِ ١٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٤-٦-٢٠١٢م.

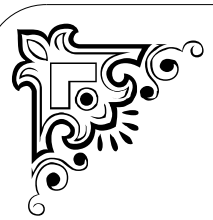

جُمْلَةٌ مِنْ أَعْظَمِ عَطَاءَاتِ الرَّبِّ الْمَنَّانِ

«**مِنْ صِفَاتِ اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **صِفَةُ الرِّزْقِ**؛ فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- الرَّزَّاقُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي رِزْقِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

خَيْرُ مَنْ رَزَقَ وَأَعْطَىٰ وَمَنَحَ، يَرْزُقُ وَخَزَائِنُهُ لَا تَفْنَىٰ وَلَا تَنْتَهِي.

وَكَلِمَةُ (الرَّزَّاقِ) أَبْلَغُ مِنْ كَلِمَةِ (الرَّازِقِ)؛ لِأَنَّ الرَّزَّاقَ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرِّزْقِ وَعَلَىٰ كَثْرَةِ الْمَرْزُوقِ؛ فَرِزْقُ اللهِ كَثِيرٌ بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ الْمَرْزُوقِينَ، فَلَا تَنْقَطِعُ عَنْهُمْ أَمْدَادُهُ وَفَوَاضِلُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ الَّذِي يُحْصِي الْمَرْزُوقِينَ عَدَدًا؟!!

لَا أَحَدَ يُحْصِيهُمْ أَبَدًا.

وَرِزْقُهُ كَثِيرٌ -سُبْحَانَهُ- بِاعْتِبَارِ الْوَاحِدِ؛ فَكَمْ لِلَّهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ رِزْقٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَىٰ!

فَرِزْقُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعَبْدِ دَارٌّ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، رَزَقَ الْعَبْدَ عَقْلًا، وَصِحَّةً، وَمَالًا، وَوَلَدًا، وَأَمْنًا، وَأُمُورًا لَا يُحْصِيهَا إِلَّا هُوَ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

وَالنِّعْمَةُ مُفْرَدٌ مُضَافٌ، وَالْمُفْرَدُ الْمُضَافُ يُفِيدُ الْعُمُومَ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾؛ فَإِنَّ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِعَدَدِ الْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النِّعَمِ، مِمَّا يَعْرِفُهُ الْعِبَادُ وَمِمَّا لَا يَعْرِفُونَهُ، وَالَّذِي يَدْفَعُهُ رَبُّهُمْ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَىٰ؛ وَلِهَذَا جَاءَ اسْمُ (الرَّزَّاقِ) بِالتَّشْدِيدِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْكَثْرَةِ -عَلَىٰ كَثْرَةِ الرِّزْقِ وَكَثْرَةِ الْمَرْزُوقِ-»(١). (*).

«مِنْ أَعْظَمِ مَا جَادَ بِهِ -تَعَالَىٰ- عَلَيْهِمْ: تَعْرِيفُهُ لَهُمْ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، هَذَا أَعْظَمُ جُودٍ جَادَ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؛ أَنْ عَرَّفَهُمْ بِهِ، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

إِنَّ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ رَبِّنَا عَلَيْنَا: أَنْ أَذِنَ لَنَا أَنْ نَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، هَذَا جُودٌ مَا بَعْدَهُ جُودٌ؛ أَنْ يَقِفَ الْعَبْدُ الْقَلِيلُ الذَّلِيلُ الْوَضِيعُ الْمُذْنِبُ الْمُقَصِّرُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِيكِ الْعَظِيمِ الْحَلِيمِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ السَّمِيعِ الْبَصِيرِ، أَنْ يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجُودِ؛ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

فَأَعْظَمُ مَا جَادَ بِهِ عَلَيْهِمْ: تَعْرِيفُهُ لَهُمْ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا.

وَبِجُودِهِ عَمَّ جَمِيعَ الْأَنَامِ؛ مِنْ طَائِعٍ وَعَاصٍ، وَقَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، وَشَكُورٍ وَكَفُورٍ، وَأَمِيرٍ وَمَأْمُورٍ.

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ لَا تَنْقُصُ خَزَائِنُهُ عَلَىٰ كَثْرَةِ عَطَائِهِ وَبَذْلِهِ، وَلَا يَغِيضُ مَا فِي

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٤٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الرِّزْقُ» - الثُّلَاثَاءُ ٢٢ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ١٢-٦-٢٠١٢م.

يَمِينِهِ سَعَةُ عَطَائِهِ، فَيَدُهُ مَبْسُوطَةٌ لَهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالنَّوَالِ، يَمِينُهُ مَلْأَىٰ لَا يَغِضُيهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَعَطَاؤُهُ وَخَيْرُهُ مَبْذُولٌ لِلْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِدْرَارًا، يُفَرِّجُ كَرْبًا، وَيُزِيلُ غَمًّا، وَيَرْفَعُ هَمًّا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، وَيَفُكُّ أَسِيرًا، وَيَجْبُرُ كَسِيرًا، وَيُجِيبُ سَائِلًا، وَيُعْطِي فَقِيرًا عَائِلًا، وَيُجِيبُ الْمُضْطَرِّينَ، وَيَسْتَجِيبُ لِلسَّائِلِينَ، وَيُنْعِمُ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَيُعَافِي مَنْ طَلَبَ الْعَافِيَةَ، وَلَا يَحْرِمُ مِنْ خَيْرِهِ عَاصِيًا، بَلْ خَيْرُهُ يَرْتَعُ فِيهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ.

وَيَجُودُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ بِالتَّوْفِيقِ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، ثُمَّ يَحْمَدُهُمْ عَلَيْهِ، وَيُضِيفُهَا إِلَيْهِمْ -يُضِيفُ إِلَيْهِمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ-، وَهُوَ الَّذِي أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهَا، وَوَفَّقَهُمْ إِلَيْهَا، وَهِيَ مِنْ جُودِهِ -تَعَالَىٰ-، وَيُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ مَا لَا يُدْرِكُهُ الْوَصْفُ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِ الْعَبْدِ، وَيَلْطُفُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَيُوصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ مَا لَا يَشْعُرُونَ بِكَثِيرٍ مِنْهُ؛ فَكَمْ مِنْ نِقْمَةٍ دَفَعَهَا فَلَمْ تَحِلَّ بِسَاحَةِ الْعَبْدِ، لَا يَعْلَمُ عَنْهَا الْعَبْدُ شَيْئًا، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدْ تَمَنَّنَ عَلَيْهِ وَتَحلَّمَ، فَرَفَعَهَا عَنْهُ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَهُ؟!!

يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ مَا لَا يشْعُرُونَ بِكَثِيرٍ مِنْهُ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ كُلُّ النِّعَمِ الَّتِي بِالْعِبَادِ فَمِنْهُ، وَتَبَارَكَ مَنْ لَا يُحْصِي أَحَدٌ ثَنَاءً عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَتَعَالَىٰ مَنْ لَا يَخْلُو الْعِبَادُ مِنْ كَرَمِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلْ لَا وُجُودَ لَهُمْ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا بِجُودِهِ، وَكُلُّ مَوْهُوبٍ وَصَلَ إِلَىٰ خَلْقِهِ فَمِنْ فَيْضِ بِحَارِ جُودِهِ وَفَضْلِهِ، وَنَعْمَائِهِ الزَّاخِرَةِ، وَأَفْضَالِهِ الْبَاهِرَةِ؛ فَهُوَ عَظِيمٌ وَاسِعُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ وَالْجُودِ.

وَكَمَا أَنَّهُ الْجَوَادُ بِإِعْطَاءِ الْخَيْرَاتِ، وَنَيْلِ الْمَوَاهِبِ وَالْهِبَاتِ وَالْبَرَكَاتِ؛ فَإِنَّهُ

الْجَوَادُ بِالْحِلْمِ عَنِ الْعَاصِينَ، وَالسَّتْرِ عَلَىٰ الْمُخَالِفِينَ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الْمُحَارِبِينَ لَهُ وَلِرُسُلِهِ الْمُبَارِزِينَ، وَالْعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالْعِبَادُ يُبَارِزُونَهُ بِالْعَظَائِمِ وَبِمَا يُغْضِبُهُ وَهُوَ -تَعَالَىٰ- يُسْدِي إِلَيْهِمُ النِّعَمَ، وَيَصْرِفُ عَنْهُمُ النِّقَمَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُوهُ، وَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَشْكُرُونَهُ؛ فَأَيُّ جُودٍ أَعْظَمُ مِنْ جُودِ مَنْ يُبَارِزُهُ الْعَبْدُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ يَمُدُّهُ بِنِعَمِهِ، وَيُعَامِلُهُ بِلُطْفِهِ، وَيُسْدِلُ عَلَيْهِ سَتْرَهُ؟!!

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ يَجُودُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَيُعْطِي سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلَهُ فَوْقَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْهُمُ الْآمَالُ، وَاللهُ أَوْسَعُ فَضْلًا، وَأَكْرَمُ وَأَجْزَلُ عَطَاءً، ﷻ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

وَمِنْ جُودِهِ: مَا أَعَدَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ؛ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَنَاظِرِ الْمُبْهِجَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَنَةِ، وَالْقُصُورِ وَالْغُرَفِ الْمُزَخْرَفَةِ، وَالْأَشْجَارِ وَالْأَثْمَارِ الْمُتَدَلِّيَةِ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُسْتَغْرَبَةِ، وَالْأَصْوَاتِ الشَّدِيَّةِ، وَالنِّعَمِ السَّابِغَةِ، وَتَزَاوُرِ الْإِخْوَانِ، وَتَذَكُّرِهِمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي رِيَاضِ الْجَنَّاتِ.

وَأَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَتَمَتُّعُ الْأَرْوَاحِ بِقُرْبِهِ، وَالْعُيُونِ بِرُؤْيَتِهِ، وَالْأَسْمَاعِ بِخِطَابِهِ وَكَلَامِهِ الَّذِي يُنْسِيهِمْ كُلَّ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ، وَلَوْ لَا الثَّبَاتُ مِنَ اللهِ لَهُمْ لَطَارُوا وَمَاتُوا مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُبُورِ؛ إِذْ يَتَجَلَّىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ حَتَّىٰ يَنْظُرُوا فِي الْجَنَّةِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

فَللَّهِ! مَا أَحْلَىٰ ذَلِكَ النَّعِيمَ، وَمَا أَعْلَىٰ مَا آتَاهُمُ الرَّبُّ الْكَرِيمُ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبَهْجَةٍ مِمَّا لَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ!

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهُ ﷺ: «**سَأَلَ مُوسَىٰ عليه السلام رَبَّهُ – تَعَالَىٰ – مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟**

قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ.

فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟

فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي.

فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ.

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّي.

يَقُولُ: لَكَ هَذَا وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي، قَالَ: رَبِّي فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟!!».

هَذَا الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُوَ أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، وَلَيْسَ فِيهِمْ دَنِيٌّ.

أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: «**لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا.**

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي.

فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ.

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّي.

يَقُولُ: لَكَ هَذَا وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ،

فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي».

فَهَذَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً.

«قَالَ مُوسَىٰ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟

قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهِمْ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

«أَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً -نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ- **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهِمْ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»**.

فَسُبْحَانَ مَنْ عَظُمَ جُودُهُ وَكَرَمُهُ أَنْ يُحِيطَ بِهِ عِلْمُ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ.

مِنْ جُودِهِ -تَعَالَىٰ-: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُؤَمِّلُوهُ وَيَرْجُوهُ، وَيَسْأَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ؛ لِأَنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْجَوَادُ، أَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَىٰ، وَأَحَبُّ مَا إِلَىٰ الْجَوَادِ أَنْ يُرْجَىٰ، وَأَنْ يُؤَمَّلَ وَيُسْأَلَ، وَفِي الْحَدِيثِ: **«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»**(٢). الْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب الإيمان، (١٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: أبواب تفسير القرآن: باب ما جاء في فضل الدعاء، (٣٣٧٣)، وابن ماجه في «**السنن**»: كتاب الدعاء: باب فضل الدعاء، (٣٨٢٧)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

=

السَّائِلُ رَاجٍ وَطَالِبٌ، فَمَنْ لَمْ يَرْجُ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ.

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ(١)

وَأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ أَكْثَرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ لَهُ سُؤَالًا، وَهُوَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَكُلَّمَا أَلَحَّ الْعَبْدُ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ أَحَبَّهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَعْطَاهُ وَأَعْلَاهُ.

مِنْ جُودِهِ -تَعَالَىٰ-: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَاهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَغْنَمَ، إِذَا دَعَوْتَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ بِالْفَائِدَةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَغْنَمَ، إِمَّا بِإِعْطَاءِ الْعَبْدِ مَا سَأَلَ، وَإِمَّا بِأَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ رَبُّهُ مِنَ الضَّرَرِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا سَأَلَ، أَوْ بِأَنْ يَدَّخِرَ اللهُ لَهُ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِفَاءَ مَا سَأَلَ، مَعَ مَا فِي الدُّعَاءِ مِنَ الْأَجْرِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ عِبَادَةٌ.

فَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ رَبَّهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَغْنَمَ؛ حَتَّىٰ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ ظَاهِرًا؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا إِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ الدُّعَاءَ لَهُ، وَإِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَا سَأَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ الضَّرَرِ وَالنِّقْمَةِ عَلَىٰ قَدْرِ مَا سَأَلَ.

فَالْإِنْسَانُ إِذَا سَأَلَ رَبَّهُ كَانَ غَانِمًا فِي كُلِّ حَالٍ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ؛ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**».

=

وفي رواية ابن ماجه، بلفظ: «من لم يدع الله سبحانه غضب عليه».

والحديث حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٦/ ٣٢٣، رقم ٢٦٥٤).

(١) البيت من الكامل في «**العزلة**»: للخطابي (ص: ٦٦).

قَالُوا: «إِذَنْ؛ نُكْثِرُ».

قَالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**»(١). الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ؛ بَلْ وَصَحَّحَهُ، فَقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

قَالُوا: «إِذَنْ؛ نُكْثِرُ» أَيْ: مِنَ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّنَا نَتَحَصَّلُ عَلَىٰ الْمَغْنَمِ فِي كُلِّ حَالٍ.

قَالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**» أَيْ: فَضْلُ اللهِ أَكْثَرُ، أَيْ: مَا يُعْطِيهِ مِنْ فَضْلِهِ وَسَعَةِ كَرَمِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يُعْطِيكُمْ فِي مُقَابَلَةِ دُعَائِكُمْ.

وَهَذَا غَايَةٌ فِي التَّرْغِيبِ فِي الدُّعَاءِ، وَنِهَايَةٌ فِي اسْتِعْطَافِ قُلُوبِ الْخَلَائِقِ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، وَإِدْرَارِ مَا فِي خَزَائِنِهِ.

فَسُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ذِي الْكَرَمِ الْفَيَّاضِ، وَالْجُودِ الْمُتَتَابِعِ، وَتَعَالَىٰ الْوَهَّابُ، فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَلَكَ الشُّكْرُ عَلَيْهَا شُكْرًا يَلِيقُ بِكَ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

مِنْ جُودِهِ -تَعَالَىٰ-: أَنْ رَضِيَ مِنْ عِبَادِهِ بِدُونِ الْيَسِيرِ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ بِهِ، وَيَسْتَحِقَّ لِذَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ؛ فَلَا نِسْبَةَ لِلْوَاقِعِ مِنَ الْعِبَادِ إِلَىٰ مَا يَسْتَحِقُّهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ؛ مَا تَبْلُغُ عِبَادَتُكَ فِيمَا هُوَ بِرَبِّكَ حَقِيقٌ؟!!

---

(١) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٣/ ١٨، رقم ١١١٣٣)، والبخاري في «**الأدب المفرد**»: (١/ ١٨٤ - ١٨٥، رقم ٧١٠)، وأبو يعلىٰ في «**المسند**»: (٢/ ٢٩٦، رقم ١٠١٩).
والحديث صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٢/ ٢٧٨، رقم ١٦٣٣).
وأخرجه أيضا: الترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، بنحوه.

وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُنْذُ أَنْ يُولَدَ إِلَىٰ أَنْ يُقِيمَ اللهُ السَّاعَةَ يُجَرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلًا فِي جَنْبِ اللهِ، لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ أَنْ يَقْبِضَهُ وَإِنْ طَالَتْ بِهِ حَيَاةٌ؛ لَوْ ظَلَّ كَذَلِكَ طُولَ الْمُدَّةِ مَا شَكَرَ أَدْنَىٰ وَأَقَلَّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَا فِيهَا قَلِيلٌ، فَقَلِيلُهُ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ.

مِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ يَقْبَلُ عُذْرَ الْعَبْدِ إِذَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ.

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ أَكَّدَ إِحْسَانَهُ وَجُودَهُ وَبِرَّهُ بِأَنْ أَوْجَبَ لِعَبْدِهِ عَلَيْهِ حَقًّا بِمُقْتَضَىٰ الْوَعْدِ؛ فَإِنَّ وَعْدَ الْكَرِيمِ إِيجَابٌ، وَمِنْ إِثَابَتِهِ لِمُطِيعِهِمْ، وَتَوْبَتِهِ عَلَىٰ تَائِبِهِمْ، وَإِجَابَتِهِ لِسَائِلِهِمْ، فَتِلْكَ حُقُوقٌ أَحَقَّهَا اللهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَىٰ نَفْسِهِ بِحُكْمِ وَعْدِهِ وَإِحْسَانِهِ، لَا أَنَّهَا حُقُوقٌ أَحَقُّوهَا هُمْ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ فِي الْحَقِيقَةِ للهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ، وَحَقُّ الْعَبْدِ عَلَيْهِ هُوَ مَا اقْتَضَاهُ جُودُهُ وَبِرُّهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِ بِمَحْضِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١): «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**».

فَهَذَا حَقٌّ وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ، وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ، لَا أَنَّ الْعَبْدَ نَفْسَهُ يَسْتَحِقُّ عَلَىٰ اللهِ شَيْئًا، كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَحَقُّهُمُ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب الجهاد: باب اسم الفرس والحمار، (٢٨٥٦)، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب الإيمان، (٣٠)، من حديث: معاذ بن جبل رضي الله عنه.

إِنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِـــهِ أَوْ نُعِّمُـــوا فَبِفَضْـلِهِ وَهُـوَ الْكَـرِيمُ الْوَاسِـعُ[١]

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[٢]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

هَذَا جُودٌ عَظِيمٌ، وَفَضْلٌ بَاهِرٌ كَرِيمٌ، وَعَطَاءٌ وَسِيعٌ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ وَكَانَ لَهُ عَمَلٌ قَطَعَهُ الْمَرَضُ وَالسَّفَرُ؛ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا.

وَعَلَيْهِ؛ فَمَا أَعْظَمَ ظُلْمَ الْعَبْدِ نَفْسَهُ إِذْ لَا يَكُونُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ كَانَ لَهُ قِيَامٌ بِاللَّيْلِ، وَوِرْدٌ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ مَرِضَ فَقُطِعَ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ كُتِبَ لَهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ وَهُوَ صَحِيحٌ؛ وَلَكِنَّ الْمَرْءَ إِذَا مَرِضَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ عَمَلٌ صَالِحٌ فَمَا الَّذِي يُكْتَبُ لَهُ؟!!

وَكَذَلِكَ إِذَا سَافَرَ فَقَطَعَهُ السَّفَرُ؛ لِأَنَّ «**السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ**»[٣] كَمَا قَالَ

---

(١) البيتان من الكامل.

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب الجهاد: باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقام، (٢٩٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب العمرة: باب السفر قطعة من العذاب، (٣/ ٦٢٢، رقم ١٨٠٤)، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب الإمارة، (٣/ ١٥٢٦، رقم ١٩٢٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، وتمامه: «... **يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَىٰ نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَىٰ أَهْلِهِ**».

الرَّسُولُ ﷺ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَتَغَيَّرُ عَادَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ فِي السَّفَرِ، وَيُصِيبُهُ مِنَ التَّعَبِ مَا يُصِيبُهُ، لَا كَمَا يَكُونُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَفِي دَارِهِ، فَإِذَا قُطِعَ عَنْ عَمَلٍ صَالِحٍ كَانَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَكْتُبُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ مُقِيمٌ.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَىٰ مَا ابْتَلَيْتُهُ؛ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وَابْتَلَيْتُهُ، وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ**»(١). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

يَقُولُ اللهُ ﷻ: «**إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَىٰ مَا ابْتَلَيْتُهُ؛ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ** -أَيْ: مِنْ فِرَاشِ مَرَضِهِ- **كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وَابْتَلَيْتُهُ، وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ**».

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَظَاهِرِ الْجُودِ، وَاللهُ ﷻ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ الَّذِي عَظُمَتْ نَعْمَاؤُهُ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَمَا خَفِيَ عَلَىٰ الْخَلْقِ مِنْ جُودِهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ مِمَّا

---

(١) أخرجه أحمد في «**المسند**»: (٤/ ١٢٤، رقم ١٧١١٨)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: (٧/ ٢٧٩، رقم ٧١٣٦)، وفي «مسند الشاميين»: (٢/ ١٥٤، رقم ١٠٩٧).
قال الهيثمي في «**المجمع**»: (٢/ ٣٠٣، رقم ٣٨١١): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط كلهم من رواية إسماعيل بن عياش عن راشد الصنعاني وهو ضعيف في غير الشاميين»، وحسنه الألباني في «**الصحيحة**»: (٤/ ١٤٤).

عَرَفُوهُ مِنْهُ؛ بَلْ لَا نِسْبَةَ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا لَمْ يَعْرِفُوهُ»(١).

وَمِنْ أَعْظَمِ مِنَنِ اللهِ عَلَى الْإِنْسَانِ: هِبَتُهُ لَهُ الْحَيَاةَ؛ فَإِنَّ الْحَيَاةَ مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ، وَهِبَةٌ يُعْطِيهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلْأَحْيَاءِ مَتَىٰ شَاءَ، وَيَسْتَرِدُّهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَقْتَمَا يَشَاءُ، وَفِي هِبَتِهِمْ وَاسْتِرْدَادِ الْهِبَةِ مِنْهُمْ.. فِي ذَلِكَ وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحِكْمَةٌ لَا يَعْلَمُهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.(*).

وَالْحَيَاةُ فِي الْبَدْءِ وَفِي الْمُنْتَهَىٰ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، يَقْضِي بِمَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، بِيَدِهِ الْأَمْرُ، يَهَبُ الْحَيَاةَ لِلْأَحْيَاءِ وَيَسْلُبُهَا مَتَىٰ يَشَاءُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ.(*/٢).

وَأَفْضَلُ مَا يُعْطَاهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: رِضْوَانُ اللهِ، وَالنَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(٤). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٢٨٣-٢٩٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّبْرُ عَلَىٰ الْبَلَاءِ»، ٩-٨-٢٠٠٢م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ» - الْجُمُعَةُ ١١ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٢٨هـ| ٢٤-٨-٢٠٠٧م.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

وَأَعْظَمَ النَّعِيمُ النَّظَرَ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: «رُؤْيَةُ اللهِ هِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَىٰ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيَا مِنْ عَطَايَا اللهِ الْفَاخِرَةِ، بَلَغَنَا اللهُ مِنْهَا مَا نَرْجُو».

وَقَدْ صَرَّحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِرُؤْيَةِ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣].

وَالْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكُونَ يَحْرِمُونَ مِنْ هَذَا النَّعِيمِ الْعَظِيمِ، وَالتَّكْرِمَةُ الْبَاهِرَةُ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥].

رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(١) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**». زَادَ فِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا** -وَفِي رِوَايَةٍ: «**طُولُهَا**»- **سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٣) ومسلم (٢٨٣٨).

الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

وَالنَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْمَزِيدِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ الْمُحْسِنِينَ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وَقَدْ فُسِّرَتِ الْحُسْنَىٰ بِالْجَنَّةِ، وَالزِّيَادَةُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ.

وَرُؤْيَةُ اللهِ -تَعَالَىٰ- رُؤْيَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، لَا كَمَا تَزْعُمُ بَعْضُ الْفِرَقِ الَّتِي نَفَتْ رُؤْيَةَ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَقَايِيسَ عَقْلِيَّةٍ بَاطِلَةٍ، وَتَحْرِيفَاتٍ لَفْظِيَّةٍ جَائِرَةٌ.

وَقَدْ سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] فَقِيلَ: «إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: إِلَىٰ ثَوَابِهِ؟».

فَقَالَ مَالِكٌ: «كَذَّبُوا، فَأَيْنَ هُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]؟!!».

قَالَ مَالِكٌ: «النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْيُنِهِمْ».

وَقَالَ: «لَوْ لَمْ يَرَىٰ الْمُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يُعِيرِ اللهُ الْكُفَّارَ بِالْحِجَابِ فَقَالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]».

مِنَ الَّذِينَ نَصُّوا عَلَىٰ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّاتِ الطَّحَاوِيُّ فِي الْعَقِيدَةِ الْمَشْهُورَةِ بِاسْمِ «الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» قَالَ: «وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣]،

وَتَفْسِيرُهُ عَلَىٰ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ وَعِلْمَهُ، وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلَّمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَىٰ عَالِمِهِ».

قَالَ شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ مُبَيِّنًا مَذَاهِبَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي الْمَسْأَلَةِ: «وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ الْمُخَالِفِ فِي الرُّؤْيَةِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ الْخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ، وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعُونَ، وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَهْلِ الْحَدِيثِ، وَسَائِرِ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَنْسُوبُونَ إِلَىٰ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ».(*).

«فَسُبْحَانَ مَنْ عَمَّ جُودُهُ جَمِيعَ الْبَرِيَّاتِ، وَرَزَقَ الطَّيِّبَاتِ، وَأَنْعَمَ بِمَا لَا يُحْصَىٰ مِنَ النِّعَمِ وَالْهِبَاتِ وَالْعَطَايَا وَالْمِنَحِ السَنِيَّاتِ!

فَللهِ مِنْ ذَلِكَ أَعْظَمُ عَطَاءٍ وَأَجَلُّهُ، وَالْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ جُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَتَبَارَكَ اللهُ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ!

وَهُوَ الْجَوَادُ فُجُودُهُ عَمَّ الْوُجُودَ ... جَمِيعَهُ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ

وَهُوَ الْجَوَادُ فَلَا يَخَيِّبُ سَائِلًا ... وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «أَفْضَلُ مَا يُعْطَاهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: رِضْوَانُ اللهِ وَالنَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ» - الثُّلَاثَاءُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٤٢هـ| ٤-٥-٢٠٢١م.

(٢) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٢٩٠-٢٩١).

فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَتَقَلَّبُ فِي نَعْمَائِهِ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ عَمَّ الْجَمِيعَ بِفَضْلِهِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَبْتَلِيهِمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ كَمَا يَبْتَلِي اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ بِالنِّقَمِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْحِكْمَةُ، الْجُودُ» - السَّبْتُ ١٩ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٩-٦-٢٠١٢م.

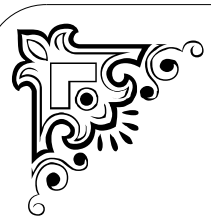
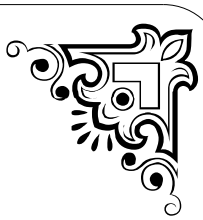

افْتِقَارُ جَمِيعِ الْعِبَادِ إِلَى عَطَاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا

عِبَادَ اللهِ! «مِنْ كَمَالِ غِنَاهُ ﷻ أَنَّ الْخَلَائِقَ بِأَسْرِهَا لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهَا، فَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، وَفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي إِعْدَادِهِمْ بِالْقُوَىٰ وَالْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ الَّتِي لَوْ لَا إِعْدَادُهُ إِيَّاهُمْ لَهَا لَمَا اسْتَعَدُّوا لِأَيِّ عَمَلٍ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وَتَعْرِيفُ الْفُقَرَاءِ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي فَقْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لِشِدَّةِ افْتِقَارِهِمْ وَكَثْرَةِ احْتِيَاجِهِمْ هُمُ الْفُقَرَاءُ: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، فَعَرَّفَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ فَقْرِهِمْ وَعَوَزِهِمْ، وَلِلْمُبَالَغَةِ فِي فَقْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لِشِدَّةِ افْتِقَارِهِمْ وَكَثْرَةِ احْتِيَاجِهِمْ هُمُ الْفُقَرَاءُ، ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ فَقْرًا كَامِلًا.

«فُقَرَاءُ فِي إِمْدَادِهِمْ بِالْأَقْوَاتِ وَالْأَرْزَاقِ وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَلَوْلَا فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ وَتَيْسِيرُهُ الْأُمُورَ لَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَالنِّعَمِ شَيْءٌ.

فُقَرَاءُ فِي صَرْفِ النِّقَمِ عَنْهُمْ وَدَفْعِ الْمَكَارِهِ وَإِزَالَةِ الْكُرُوبِ وَالشَّدَائِدِ، فَلَوْلَا دَفْعُهُ عَنْهُمْ، وَتَفْرِيجُهُ لِكُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَتُهُ لِعُسْرِهِمْ؛ لَاسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَكَارِهُ وَالشَّدَائِدُ.

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ بِأَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ وَأَجْنَاسِ التَّدْبِيرِ.

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَعَمَلُهُمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، فَلَوْلَا تَعْلِيمُهُ لَمْ يَتَعَلَّمُوا، وَلَوْلَا تَوْفِيقُهُ لَمْ يَصْلُحُوا»[(١)].

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ عَفْوِهِ عَنْهُمْ وَمَغْفِرَتُهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُذْنِبُ دَائِمًا، فَهُوَ فَقِيرٌ مُذْنِبٌ، وَرَبُّهُ -تَعَالَىٰ- يَرْحَمُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

فَلَوْلَا رَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ لَمَا وُجِدَ خَيْرٌ أَصْلًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَإِنْ لَمْ يَعْفُ عَنِ الْعَبْدِ وَيَغْفِرُ لَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَىٰ النَّجَاةِ، فَمَا نَجَا أَحَدٌ إِلَّا بِعَفْوِ اللهِ، وَلَا دَخَلَ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ مَا هَنَأَ أَحَدًا عَيْشُ الْبَتَّةَ، وَلَا عَرَفَ خَالِقَهُ، وَلَا ذَكَرَهُ، وَلَا آمَنَ بِهِ، وَلَا أَطَاعَهُ.

فَلَا يَسَعُ الْخَلَائِقَ إِلَّا رَحْمَتُهُ وَعَفْوُهُ، وَلَا يَبْلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَنْجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ أَوْ يَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ الْخَلْقِ لِرَبِّهِ وَأَفْضَلُهُمْ عَمَلًا وَأَشَدُّهُمْ تَعْظِيمًا لَهُ جَلَّ وَعَلَا؛ ﷺ: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**».

قَالُوا: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟».

قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدِنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ**»[(٢)]. وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

---

(١) «**موسوعة فقه القلوب**»: (٢/ ١٩١٢).

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب المرضىٰ: باب تمني المريض الموت، (٥٦٧٣)، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (٢٨١٦)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

فَإِذَا كَانَ عَمَلُ الْعَبْدِ لَا يَسْتَقِلُّ بِالنَّجَاةِ، فَلَوْ لَمْ يُنَجِّهِ اللهُ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَخَسَهُ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ وَلَا ظَلَمَهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مَا يَقْتَضِي نَجَاتَهُ، وَعَمَلُهُ لَيْسَ وَافِيًا بِشُكْرِ الْقَلِيلِ مِنْ نِعَمِهِ فَهَلْ يَكُونُ ظَالِمًا لَوْ عَذَّبَهُ؟

وَهَلْ تَكُونُ رَحْمَتُهُ لَهُ جَزَاءً لِعَمَلِهِ، وَيَكُونُ الْعَمَلُ ثَمَنًا لَهَا مَعَ تَقْصِيرِهِ فِيهِ وَعَدَمِ تَوْفِيَتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ بَذْلِ النَّصِيحَةِ فِيهِ وَكَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ مِنَ الْحَيَاءِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْخُشُوعِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ فِي الْعَمَلِ لَهُ؟

فَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ بِالذَّاتِ بِكُلِّ مَعْنًى وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ وَالْأَوْقَاتِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ، سَوَاءٌ شَعَرُوا بِبَعْضِ أَنْوَاعِ الْفَقْرِ أَمْ لَمْ يَشْعُرُوا.

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْهُمْ، وَكُلُّ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْأَلُونَهُ وَهُوَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا.

فَالْمَلَائِكَةُ تَسْأَلُهُ مَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِلَّا بِهِ؛ مِنْ إِعَانَتِهِ عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ، وَالْقِيَامِ بِمَا جَعَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَصَالِحِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَتَسْأَلُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِبَنِي آدَمَ.

وَالرُّسُلُ تَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَتَبْلِيغِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ.

وَبَنُو آدَمَ كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَهُ مَصَالِحَهُمْ عَلَىٰ تَنَوُّعِهَا وَاخْتِلَافِهَا.

وَالْحَيَوَانُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ رِزْقَهُ وَغِذَاءَهُ وَقُوتَهُ وَمَا يُقِيمُهُ، وَيَسْأَلُهُ الدَّفْعَ عَنْهُ.

وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ يَسْأَلُهُ غِذَاءَهُ وَمَا يَكْمُلُ بِهِ.

وَالْكَوْنُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ إِمْدَادَهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩].

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] قَالَ: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ**»(١). رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «ظِلَالِ الْجَنَّةِ».

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ لِذَاتِهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْغَايَاتِ، فَإِنَّ مَا لَا يَكُونُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ لَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي قَبُولِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام وَهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

الْخَلْقُ فُقَرَاءُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي قَبُولِ أَعْمَالِهِمْ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعَمَلِ وَفِي قَبُولِ الْعَمَلِ زَالَ عَنْهُ الْإِعْجَابُ، وَإِذَا زَالَ عَنْهُ الْإِعْجَابُ صَارَ حَرِيًّا بِأَنْ يَقْبَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْهُ، وَأَنْ يُثِيبَهُ؛ فَأَيُّ عَمَلٍ أَجَلُّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية، (٢٠٢)، وابن حبان في «**الصحيح**» بترتيب ابن بلبان: (٢/ ٤٦٤، رقم ٦٨٩)، وصححه الألباني في «**ظلال الجنة**»: (١/ ١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب الزهد والرقائق: باب من أشرك في عمله غير الله، (٢٩٨٥).

مِنْ عَمَلٍ يَقْبَلُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!!

وَأَيُّ سَعْيٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيٍ يَشْكُرُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!!

وَأَيُّ طَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ طَاعَةٍ اخْتَارَهَا وَرَضِيَهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!!

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِمْ وَدَفْعِ الْأَضْرَارِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي اسْتِغَاثَتِهِ رَبَّهُ فِي الِاسْتِسْقَاءِ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَىٰ حِينٍ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِيَ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»(٢).

فَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مَا أَبْلَغَ هَذَا الْكَلَامَ، وَأَعْلَىٰ طَبَقَتَهَ، وَأَرْفَعَ مَنْزِلَتَهَ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: كتاب الصلاة: باب رفع اليدين في الاستسقاء، (١١٧٣)، من حديث: عائشة رضي الله عنها.

والحديث حسنه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (٣/ ١٣٥، رقم ٦٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي أَعْظَمِ الْحَاجَاتِ وَأَشَدِّ الضَّرُورَاتِ، وَهِيَ تَأَلُّهُهُمْ لَهُ، وَحُبُّهُمْ لَهُ، وَتَعَبُّدُهُمْ وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَلَوْ لَمْ يُوَفِّقْهُمْ لِذَلِكَ لَهَلَكُوا، وَفَسَدَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وَلَفَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اسْتَغَاثَ بِالْفَقِيرِ بِالذَّاتِ، الضَّعِيفِ بِالذَّاتِ، الْعَاجِزِ بِالذَّاتِ، الْمُحْتَاجِ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، وَتَرَكَ الِاسْتِغَاثَةَ بِالْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَجُودُهُ وَإِحْسَانُهُ وَعِلْمُهُ وَرَحْمَتُهُ وَكَمَالُهُ الْمُطْلَقُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ.

فَبِالْجُمْلَةِ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ -تَعَالَىٰ- فِي وُجُودِهَا، فَلَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِهِ، فَهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ فِي قِيَامِهَا، فَلَا قِوَامَ لَهَا إِلَّا بِهِ، فَلَا حَرَكَةَ وَلَا سُكُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ الْقَيِّمُ لِغَيْرِهِ، وَلَا قِوَامَ لِشَيْءٍ إِلَّا بِهِ، فَلِلْخَالِقِ مُطْلَقُ الْغِنَىٰ لِكَمَالِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ مُطْلَقُ الْفَقْرِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَكَمَالِهِ.

وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ ... جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَىٰ شَانُهُ

وَكُلُّ شَيْءٍ رِزْقُهُ عَلَيْهِ ... وَكُلُّنَا مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ[1]

فَسُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ خَلْقَهُ بِغِنَاهُ، وَافْتَقَرَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ.

---

(١) «معارج القبول بشرح سلم الوصول»: (١/ ٢٤٤).

مَتَىٰ شَهِدَ الْعَبْدُ غِنَىٰ اللهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَفَقْرَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ صَارَ فَقْرُهُ وَضَرُورَتُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ وَصْفًا لَازِمًا لَهُ، فَهُوَ لَا غِنَىٰ لَهُ عَنْ رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ عَلَىٰ مَدَىٰ الْأَنْفَاسِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

فَاقَتُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ تَامَّةٌ كَامِلَةٌ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ رَبَّهُ وَخَالِقَهُ وَفَاطِرَهُ وَنَاصِرَهُ وَحَافِظَهُ وَمُعِينَهُ وَرَازِقَهُ وَهَادِيَهُ وَمُعَافِيَهُ وَالْقَائِمَ بِجَمِيعِ مَصَالِحِهِ، وَمِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَعْبُودَهُ وَإِلَهَهُ وَحَبِيبَهُ الَّذِي لَا تَكْمُلُ حَيَاتُهُ وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِ وَأَشْوَقَ شَيْءٍ إِلَيْهِ، فَلَا يَشْهَدُ لَهُ حَالًا مَعَ اللهِ وَلَا مَقَالًا كَمَا لَمْ يَشْهَدْ لَهُ عَمَلًا؛ فَقَدْ جَعَلَ عُدَّتَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ فَقْرَهُ مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، فَهُوَ لَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْفَقْرِ الْخَالِصِ الْمَحْضِ.

الْفَقْرُ خَيْرُ الْعَلَاقَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَالنِّسْبَةُ الَّتِي يَنْتَسِبُ بِهَا إِلَيْهِ، وَالْبَابُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَيْهِ، وَالطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْهُ، وَكُلُّ طَرِيقٍ سِوَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ فَمَسْدُودٌ، وَهُوَ لُبُّ الْعُبُودِيَّةِ وَسِرُّهَا، وَحُصُولُهُ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِلْعَبْدِ وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَىٰ اللهِ.

وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْظَمَ شُهُودًا لِفَقْرِهِ وَضَرُورَتِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ وَعَدَمِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ وَأَعَزَّ لَهُ وَأَعْظَمَ لِقَدْرِهِ؛ فَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»(١)، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: أبواب الدعوات، (٣٥٢٤)، من حديث: أنس رضي الله عنه.
قال الترمذي: «حديث غريب»، وحسنه لغيره الألباني في «**الصحيحة**»: (٧/ ٥٥٦، رقم ٣١٨٢).

«دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: **اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

فَالْفَقِيرُ هُوَ الَّذِي حَاجَاتُهُ إِلَىٰ اللهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ أَوْ أَكْثَرَ، فَالْعَبْدُ لَهُ فِي كُلِّ نَفَسٍ وَلَحْظَةٍ وَطَرْفَةِ عَيْنٍ عِدَّةُ حَوَائِجَ إِلَىٰ اللهِ لَا يَشْعُرُ بِكَثِيرٍ مِنْهَا، فَأَفْقَرُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ مَنْ شَعَرَ بِهَذِهِ الْحَاجَاتِ، وَطَلَبَهَا مِنَ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ، فَيُغْنِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيُعْطِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْتَقِبُ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(٢):

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَىٰ رَبِّ الْبَرِّيَّاتِ ... أَنَا الْمِسْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالْخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأْتِي
لَا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ الْمَضَرَّاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَالُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي

وَمَتَىٰ شَهِدَ فَقْرَ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَىٰ أَحَدٍ، وَلَمْ يُعَلِّقْ أَمَلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الْحَقِيقِيُّ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَشْهَدُ فَقْرَهُ فِي كُلِّ

---

(١) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح، (٥٠٩٠)، من حديث: أبي بكرة رضي الله عنه.

والحديث حسنه الألباني في «صحيح الترغيب»: (٢/ ٣٦١، رقم ١٨٢٣).

(٢) الأبيات من البسيط لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم المعروف بـ(ابن تيمية)، في «**المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ**»: جمع ابن قاسم (١/ ١٤٤).

حَالٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ وَيَسْأَلُهُ أَلَّا يَكِلَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَنْ يُعِينَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَيَسْتَصْحِبُ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

فَهَذَا حَرِيٌّ بِالْإِعَانَةِ التَّامَّةِ مِنْ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، فَمَا أَغْنَاهُ -حِينَئِذٍ- مِنْ فَقِيرٍ، وَمَا أَعَزَّهُ -حِينَئِذٍ- مِنْ ذَلِيلٍ، وَمَا أَقْوَاهُ مِنْ ضَعِيفٍ، وَمَا آنَسَهُ مِنْ وَحِيدٍ، فَهُوَ الْغَنِيُّ بِلَا مَالٍ، الْقَوِيُّ بِلَا سُلْطَانٍ، الْعَزِيزُ بِلَا عَشِيرَةٍ، الْمَكْفِيُّ بِلَا عَتَادٍ.

افْتَقَرَ إِلَىٰ اللهِ فَأَغْنَاهُ عَنْهُمْ، وَذَلَّ للهِ فَأَعَزَّهُ فِيهِمْ، وَتَوَاضَعَ للهِ فَرَفَعَهُ بَيْنَهُمْ، وَاسْتَغْنَىٰ بِاللهِ فَأَحْوَجَهُمْ إِلَيْهِ، قَدْ تَمَّ لَهُ غِنَاهُ بِالْإِلَهِ الْحَقِّ، وَصَارَ مِنْ أَغْنَىٰ الْعِبَادِ.

وَلِسَانُ حَالِ مِثْلِ هَذَا يَقُولُ:

غَنِيتُ بِلَا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمِ ... وَإِنَّ الْغِنَىٰ الْعَالِي عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ(١)

فَيَا لَهُ مِنْ غَنِيٍّ مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وَأَجَلَّ قَدْرَهُ!

وَيَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ عَظِيمِ الْمَنْفَعَةِ جَلِيلِ الْفَائِدَةِ، تَحْتَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْعُبُودِيَّةِ مَا لَا يَنَالُهُ الْوَصْفُ!»(٢) .(*).

❊❊❊

---

(١) البيت من الطويل، في «الدر الفريد» (٧/ ٣٠٧):

غنيٌّ بلا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِم... وَلَيسَ الغِنَىٰ إلا عَنِ الشَيءِ لا بِهِ

(٢) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٦٨-٧٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْغَنَىٰ» - الِاثْنَيْنِ ١٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٤-٦-٢٠١٢م.

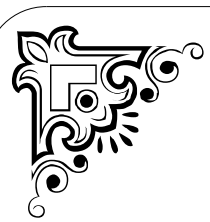

قُدْرَةُ اللهِ ﷻ الْمُطْلَقَةُ فِي الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ

مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْقُدْرَةُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧] أَيْ: مَا عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ.

وَالْقَدِيرُ أَبْلَغُ فِي الْوَصْفِ بِالْقُدْرَةِ مِنَ الْقَادِرِ، وَ(مُقْتَدِرٌ) مِنْ (اقْتَدَرَ)، وَهُوَ أَبْلَغُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨].

وَوَرَدَ اسْمُ الْمُقْتَدِرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَفُوتُهُ مَطْلُوبٌ، بِخِلَافِ خَلْقِهِ؛ فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْعَجْزُ، وَلَا يَعْتَرِضُهُ فُتُورٌ، وَالْقَادِرُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ مَنْ يَتَيَسَّرُ لَهُ مَا يُرِيدُ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ لِظُهُورِ أَفْعَالِهِ، وَلَا يَظْهَرُ الْفِعْلُ اخْتِيَارًا إِلَّا مِنْ قَادِرٍ غَيْرِ عَاجِزٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠].

فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهُ حَذَّرَ الْمُنَافِقِينَ بَأْسَهُ وَسَطْوَتَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَالْقَدِيرُ هُوَ الْقَادِرُ، كَمَا أَنَّ الْعَلِيمَ هُوَ الْعَالِمُ، الْقَدِيرُ -سُبْحَانَهُ- كَامِلُ الْقُدْرَةِ؛ فَبِقُدْرَتِهِ أَوْجَدَ الْمَوْجُودَاتِ، وَبِقُدْرَتِهِ دَبَّرَهَا، وَبِقُدْرَتِهِ سَوَّاهَا وَأَحْكَمَهَا، وَبِقُدْرَتِهِ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَبْعَثُ الْعِبَادَ لِلْجَزَاءِ، وَبِقُدْرَتِهِ يُقَلِّبُ الْقُلُوبَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ وَيَشَاءُ.(*).

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- عَلَى الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

«جَمِيعُ الْأَرْزَاقِ وَأَصْنَافِ الْأَقْدَارِ لَا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، فَخَزَائِنُهَا بِيَدِهِ، يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أَيِ: الْمُقَدَّرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ مَطَرٍ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ﴾ مَعْلُومٍ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا قَدَّرَهُ اللهُ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: الْقُدْرَةُ» - السَّبْتُ ٢٤ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٤٢هـ| ٥-٦-٢٠٢١م.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٩٨-٤٩٩).

الْعَطَاءُ مِنَ اللهِ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ، وَالرَّفْعُ مِنَ اللهِ، وَالْوَضْعُ مِنَ اللهِ(*)؛ فَـ«إِنَّ كُلَّ مَا فِي الْوُجُودِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، خَلَقَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُغْنِي وَيُفْقِرُ، وَيُضِلُّ وَيَهْدِي، وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي، وَيُوَلِّي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيَشْرَحُ صَدْرَ مَنْ يَشَاءُ لِلْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُ صَدْرَ مَنْ يَشَاءُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ يُقَلِّبُ الْقُلُوبَ، مَا مِنْ قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ، وَهُوَ الَّذِي حَبَّبَ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ؛ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمُسْلِمَ مُسْلِمًا، وَالْمُصَلِّيَ مُصَلِّيًا، قَالَ الْخَلِيلُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤].

وَقَالَ عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢١].

وَقَالَ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مَقْطَعٍ بِعُنْوَان: «الْعَطَاءُ مِنَ اللهِ وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ».

[هود: ٣٨]، وَالْفُلْكُ مَصْنُوعَةٌ لِبَنِي آدَمَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤٢].

وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا﴾ [النحل: ٨٠] الْآيَاتِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَصْنُوعَةٌ لِبَنِي آدَمَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]، وَقَالَ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، وَلَهُ فِيمَا خَلَقَهُ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ، وَنِعْمَةٌ سَابِغَةٌ، وَرَحْمَةٌ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، وَهُوَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لَا لِمُجَرَّدِ قُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ؛ بَلْ لِكَمَالِ عِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ؛ فَإِنَّهُ ﷻ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَقَدْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

وَقَدْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

وَقَالَ: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]»(١).

وَ«التَّوْحِيدُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ: هُوَ أَنْ يَعْبُدَ الْمُوَحِّدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَهُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ الْحَقَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَأَمَّا مُجَرَّدُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ شُهُودُ رُبُوبِيَّةِ الْحَقِّ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَهَذَا التَّوْحِيدُ كَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادَ اعْتِرَافَهُ بِأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَشُهُودَهُ لِفَقْرِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، وَفَقْرِ سَائِرِ الْكَائِنَاتِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَلِيكُهُ، لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، **وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا هُوَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَىٰ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ،** ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ٢].

﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٧].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٧٨-٨٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

فَإِنْ أَرَادَ هَذَا الْمَشْهَدَ؛ فَهَذَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ»(١).

وَ«الْمَخْلُوقُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْعَبْدِ نَفْعٌ وَلَا ضُرٌّ، وَلَا عَطَاءٌ وَلَا مَنْعٌ، بَلْ رَبُّهُ - سُبْحَانَهُ- الَّذِي خَلَقَهُ، وَرَزَقَهُ، وَبَصَّرَهُ وَهَدَاهُ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ نِعَمَهُ، وَتَحَبَّبَ إِلَيْهِ بِهَا مَعَ غِنَاهُ عَنْهُ، وَمَعَ تَبَغُّضِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي مَعَ فَقْرِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا مَسَّهُ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِذَا أَصَابَهُ بِنِعْمَةٍ فَلَا رَادَّ لَهَا وَلَا مَانِعَ، كَما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

وَ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢].

فَالْعَبْدُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ؛ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، هُوَ مُقَلِّبُ الْقُلُوبِ ومُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، الْمُتَفَرِّدُ بِالضُّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»(٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ

(١) «الاستقامة» (٢/ ٣١-٣٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «طريق الهجرتين» (١/ ١٠٤) للعلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

«للهِ ﷻ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْخَلْقِ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِنَاثًا لَا ذُكُورَ مَعَهُنَّ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ لَا إِنَاثَ مَعَهُمْ، وَيُعْطِي ﷻ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ؛ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَخْلُقُ، قَدِيرٌ عَلَىٰ خَلْقِ مَا يَشَاءُ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَ خَلْقَهُ»(١).

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»(٢). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

«فِي الْحَدِيثِ: نِسْبَةُ الْأَفْعَالِ إِلَىٰ اللهِ، وَالْمَنْعِ وَالْإِعْطَاءِ، وَتَمَامِ الْقُدْرَةِ»(٣).

وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ..**» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ**

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٢).

(٣) «فتح الباري» (٢/ ٣٨٦).

الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١)، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِ التِّرْمِذِيِّ -كَمَا قَالَ النَّوَوِيُّ فِي «الْمَجْمُوعِ»-: «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**». أَخْرَجَ هَذَا بِنَحْوِهِ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٢) بِأَتَمَّ مِنْ هَذَا.(*).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْمِشْكَاةِ» (٥٣٠٢)

(٢) عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ كَمَا فِي «الْمُنْتَخَبِ» (ص ٢١٤)، وَأَحْمَدُ في «مسنده» (١/ ٣٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٨٠٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ» (الْحَدِيثُ التَّاسِعَ عَشَرَ)، الْأَرْبِعَاء ٢٣ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٥هـ| ٢٧-١١-٢٠١٣م.

حِكْمَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْبَالِغَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ

عِبَادَ اللهِ! «إِنَّ اللهَ ﷻ هُوَ صَاحِبُ الْحِكْمَةِ.. صَاحِبُ الْحِكْمَةِ الْمُطْلَقَةِ، الْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ؛ فَهُوَ ذُو الْحِكْمَةِ، أَيْ: ذُو الْإِتْقَانِ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ، وَكُلِّ مَا شَرَعَ، وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨].

وَالْحَكِيمُ يَتَضَمَّنُ حُكْمَهُ وَعِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ، فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ كَانَ حَسَنًا، وَإِذَا أَخْبَرَ بِخَبَرٍ كَانَ صِدْقًا، وَإِذَا أَرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ كَانَ صَوَابًا؛ فَهُوَ حَكِيمٌ فِي إِرَادَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَقْوَالِهِ.

إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ كَانَ حَسَنًا، وَإِذَا أَخْبَرَ بِخَبَرٍ كَانَ صِدْقًا، وَإِذَا أَرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ كَانَ صَوَابًا.

هُوَ الْمَوْصُوفُ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، وَبِكَمَالِ الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ.

فَالْحِكْمَةُ: هِيَ سَعَةُ الْعِلْمِ، وَالِاطِّلَاعُ عَلَىٰ مَبَادِئِ الْأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، وَعَلَىٰ سَعَةِ الْحَمْدِ؛ حَيْثُ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَحَيْثُ يُنَزِّلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَلَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ سُؤَالٌ، وَلَا يَقْدَحُ فِي حِكْمَتِهِ مَقَالٌ، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١].

فَهَذِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي يَحْكُمُ اللهُ فِيهَا تُوجَدُ فِي غَايَةِ الْحِكْمَةِ وَالْإِتْقَانِ، لَا خَلَلَ فِيهَا وَلَا نَقْصٍ بِحَالٍ، بَلْ هِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ وَالْحَمْدِ، فَلَا يَتَعَقَّبُهَا أَحَدٌ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ الْقَدْحِ فِيهَا، بِخِلَافِ حُكْمِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يُوَافِقُ الصَّوَابَ، وَقَدْ لَا يُوَافِقُهُ»(١).(*).

إِنَّ الْعَطَاءَ وَالْمَنْعَ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَكُونَانِ وَفْقَ حِكْمَتِهِ -سُبْحَانَهُ-، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

«هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا فَرْضُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ بَعْدَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مَأْمُورِينَ بِتَرْكِهِ؛ لِضَعْفِهِمْ، وَعَدَمِ احْتِمَالِهِمْ لِذَلِكَ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَكَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَقَوُوا؛ أَمَرَهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالْقِتَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ لِلنُّفُوسِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ، وَحُصُولِ أَنْوَاعِ الْمَخَاوِفِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْمَتَالِفِ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ خَيْرٌ مَحْضٌ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ، وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ، وَالنَّصْرِ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَالظَّفَرِ بِالْغَنَائِمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُرْبٍ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الْكَرَاهَةِ.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾: وَذَلِكَ مِثْلُ الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ؛ فَإِنَّهُ شَرٌّ؛ لِأَنَّهُ يُعْقِبُ الْخِذْلَانَ، وَتَسَلُّطَ الْأَعْدَاءِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ،

---

(١) «الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ» (ص: ٢٧٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْحِكْمَةُ، الْجُودُ» - السَّبْتُ ١٩ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٩-٦-٢٠١٢م.

وَحُصُولَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَفَوَاتَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَحُصُولَ الْعِقَابِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ عَامَّةٌ مُطَّرِدَةٌ فِي أَنَّ أَفْعَالَ الْخَيْرِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النُّفُوسُ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ.. أَنَّهَا خَيْرٌ بِلَا شَكٍّ، وَأَنَّ أَفْعَالَ الشَّرِّ الَّتِي تُحِبُّ النُّفُوسُ لِمَا تَتَوَهَّمُهُ فِيهَا مِنَ الرَّاحَةِ وَاللَّذَّةِ.. فَهِيَ شَرٌّ بِلَا شَكٍّ.

وَأَمَّا أَحْوَالُ الدُّنْيَا؛ فَلَيْسَ الْأَمْرُ مُطَّرِدًا، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ عَلَىٰ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ، فَقَيَّضَ اللهُ لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُ، فَالْأَوْفَقُ لَهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ، وَيَجْعَلَ الْخَيْرَ فِي الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ - تَعَالَىٰ - أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَقْدَرُ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ عَبْدِهِ مِنْهُ، وَأَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِهِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾؛ فَاللَّائِقُ بِكُمْ أَنْ تَتَمَشَّوْا مَعَ أَقْدَارِهِ؛ سَوَاءٌ سَرَّتْكُمْ أَوْ سَاءَتْكُمْ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ١١].

«إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِأَشْنَعِ الْكَذِبِ -وَهُوَ اتِّهَامُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِالْفَاحِشَةِ- جَمَاعَةٌ مُنْتَسِبُونَ إِلَيْكُمْ -مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ-، لَا تَحْسَبُوا قَوْلَهُمْ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لِمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ مِنْ تَبْرِئَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَزَاهَتِهَا، وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهَا، وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَتَمْحِيصِ الْمُؤْمِنِينَ»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٦).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٣٥١).

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ: الِابْتِلَاءَ وَالِاخْتِبَارَ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

«﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَاسْتَخْلَفَكُمُ اللهُ فِي الْأَرْضِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ جَمِيعَ مَا فِيهَا، وَابْتَلَاكُمْ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ فِي الْقُوَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَالرِّزْقِ، وَالْخَلْقِ، وَالْخُلُقِ؛ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، فَتَفَاوَتَتْ أَعْمَالُكُمْ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصَاهُ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا، وَتَابَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»(١).

وَيَقُولُ تعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢].

«﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أَيْ: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْحَالُ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنَ الدُّنْيَا.

فَمَعَايِشُ الْعِبَادِ وَأَرْزَاقُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ بِيَدِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَهُوَ الَّذِي يُقَسِّمُهَا بَيْنَ عِبَادِهِ، فَيَبْسُطُ الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣١٧).

(٢) بتصرف يسير واختصار من: «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٠١).

فَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ يُدْرِكُ تَمَامَ الْإِدْرَاكِ أَنَّ فِي الْعَطَاءِ كَمَا فِي الْمَنْعِ فِتْنَةً وَاخْتِبَارًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

«اللهُ -تَعَالَىٰ- أَوْجَدَ عِبَادَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، وَالْعِزِّ وَالذُّلِّ، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ؛ فِتْنَةً مِنْهُ -تَعَالَىٰ- لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَمَنْ يَفْتَتِنُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْفِتَنِ وَمَنْ يَنْجُو، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾: فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»(١).

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**»(٢).

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «الفوائد» (ص: ٩١-٩٣) للعلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَالْآيَةُ الْأُولَىٰ فِي الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ كَمَالُ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ.

وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي النِّكَاحِ الَّذِي هُوَ كَمَالُ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ.

فَالْعَبْدُ يَكْرَهُ مُوَاجَهَةَ عَدُوِّهِ بِقُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ؛ خَشْيَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْهُ، وَهَذَا الْمَكْرُوهُ خَيْرٌ لَهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَيُحِبُّ الْمُوَادَعَةَ وَالْمُتَارَكَةَ، وَهَذَا الْمَحْبُوبُ شَرٌّ لَهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ.

وَكَذَلِكَ يَكْرَهُ الْمَرْأَةَ لِوَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهَا، وَلَهُ فِي إِمْسَاكِهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ لَا يَعْرِفُهُ، وَيُحِبُّ الْمَرْأَةَ لِوَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهَا، وَلَهُ فِي إِمْسَاكِهَا شَرٌّ كَثِيرٌ لَا يَعْرِفُهُ؛ فَالْإِنْسَانُ كَمَا وَصَفَهُ بِهِ خَالِقُهُ؛ ظَلُومٌ جَهُولٌ.

فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ الْمِعْيَارَ عَلَىٰ مَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ مَيْلَهُ وَحُبَّهُ، وَنُفْرَتَهُ وَبُغْضَهُ، بَلِ الْمِعْيَارُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لَهُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ؛ فَأَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لَهُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ طَاعَةُ رَبِّهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَأَضَرُّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ مَعْصِيَتُهُ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ.

فَإِذَا قَامَ بِطَاعَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ مُخْلِصًا لَهُ؛ فَكُلُّ مَا يجْرِي عَلَيْهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ يَكُونُ خَيْرًا لَهُ، وَإِذَا تَخَلَّىٰ عَنْ طَاعَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ؛ فَكُلُّ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ مَحْبُوبٍ هُوَ شَرٌّ لَهُ.

فَمَنْ صَحَّتْ لَهُ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ، وَالْفِقْهُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْمَكْرُوهَاتِ الَّتِي تُصِيبُهُ وَالْمِحَنَ الَّتِي تَنْزِلُ بِهِ فِيهَا ضُرُوبٌ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا عِلْمُهُ وَلَا فِكْرَتُهُ، بَلْ مَصْلَحَةُ الْعَبْدِ فِيمَا يَكْرَهُ أَعْظَمُ مِنْهَا فِيمَا يُحِبُّ؛ فَعَامَّةُ مَصَالِحِ النُّفُوسِ فِي مَكْرُوهَاتِهَا، كَمَا أَنَّ عَامَّةَ مَضَارِّهَا وَأَسْبَابِ هَلَكَتِهَا فِي مَحْبُوبَاتِهَا.

فَانْظُرْ إِلَىٰ غَارِسِ جَنَّةٍ مِنَ الْجَنَّاتِ خَبِيرٍ بِالْفِلَاحَةِ غَرَسَ جَنَّةً، وَتَعَاهَدَهَا بِالسَّقْيِ وَالْإِصْلَاحِ حَتَّىٰ أَثْمَرَتْ أَشْجَارُهَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَفْصِلُ أَوْصَالَهَا، وَيَقْطَعُ أَغْصَانَهَا؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهَا لَوْ خُلِّيَتْ عَلَىٰ حَالِهَا لَمْ تَطِبْ ثَمَرَتُهَا، فَيُطَعِّمُهَا مِنْ شَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الثَّمَرَةِ، حَتَّىٰ إِذَا الْتَحَمَتْ بِهَا وَاتَّحَدَتْ، وَأَعْطَتْ ثَمَرَتَهَا؛ أَقْبَلَ يُقَلِّمُهَا، وَيَقْطَعُ أَغْصَانَهَا الضَّعِيفَةَ الَّتِي تُذْهِبُ قُوَّتَهَا، وَيُذِيقُهَا أَلَمَ الْقَطْعِ وَالْحَدِيدِ لِمَصْلَحَتِهَا وَكَمَالِهَا؛ لِتَصْلُحَ ثَمَرَتُهَا أَنْ تَكُونَ بِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ، ثُمَّ لَا يَدَعُهَا وَدَوَاعِيَ طَبْعِهَا مِنَ الشُّرْبِ كُلَّ وَقْتٍ، بَلْ يُعَطِّشُهَا وَقْتًا وَيَسْقِيهَا وَقْتًا، وَلَا يَتْرُكُ الْمَاءَ عَلَيْهَا دَائِمًا؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَنْضَرَ لِوَرَقِهَا، وَأَسْرَعَ لِنَبَاتِهَا، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَىٰ تِلْكَ الزِّينَةِ الَّتِي زُيِّنَتْ بِهَا مِنَ الْأَوْرَاقِ فَيُلْقِي عَنْهَا كَثِيرًا مِنْهَا؛ لِأَنَّ تِلْكَ الزِّينَةَ تَحُولُ بَيْنَ ثَمَرَتِهَا وَبَيْنَ كَمَالِ نُضْجِهَا وَاسْتِوَائِهَا، كَمَا فِي شَجَرِ الْعِنَبِ وَنَحْوِهِ، فَهُوَ يَقْطَعُ أَعْضَاءَهَا بِالْحَدِيدِ، وَيُلْقِي عَنْهَا كَثِيرًا مِنْ زِينَتِهَا، وَذَلِكَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا، فَلَوْ أَنَّهَا ذَاتُ تَمْيِيزٍ وَإِدْرَاكٍ كَالْحَيَوَانِ لَتَوَهَّمَتْ أَنَّ ذَلِكَ إِفْسَادٌ لَهَا، وَإِضْرَارٌ بِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ عَيْنُ مَصْلَحَتِهَا.

وَكَذَلِكَ الْأَبُ الشَّفِيقُ عَلَىٰ وَلَدِهِ، الْعَالِمُ بِمَصْلَحَتِهِ، إِذَا رَأَىٰ مَصْلَحَتَهُ فِي إِخْرَاجِ الدَّمِ الْفَاسِدِ عَنهُ؛ بَضَعَ جِلْدَهُ -أَيْ: شَقَّهُ-، وَقَطَعَ عُرُوقَهُ، وَأَذَاقَهُ الْأَلَمَ الشَّدِيدَ، وَإِنْ رَأَىٰ شِفَاهُ فِي قَطْعِ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ أَبَانَهُ -أَيْ: فَصَلَهُ وَقَطَعَهُ- مِنْهُ؛ كُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةً بِهِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَىٰ مَصْلَحَتَهُ فِي أَنْ يُمْسِكَ عَنْهُ الْعَطَاءَ؛ لَمْ يُعْطِهِ، وَلَمْ يُوَسِّعْ عَلَيْهِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ الْأَسْبَابِ إِلَىٰ فَسَادِهِ وَهَلَاكِهِ، وَكَذَلِكَ يَمْنَعُهُ كَثِيرًا مِنْ شَهَوَاتِهِ حِمْيَةً لَهُ وَمَصْلَحَةً، لَا بُخْلًا عَلَيْهِ.

فَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَعْلَمُ الْعَالِمِينَ الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.. إِذَا أَنْزَلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ؛ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَلَّا يُنْزِلَهُ بِهِمْ؛ نَظَرًا مِنْهُ لَهُمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَلُطْفًا بِهِمْ، وَلَوْ مُكِّنُوا مِنَ الِاخْتِيَارِ لِأَنْفُسِهِمْ لَعَجَزُوا عَنِ الْقِيَامِ بِمَصَالِحِهِمْ؛ عِلْمًا وَإِرَادَةً وَعَمَلًا؛ لَكِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- تَوَلَّىٰ تَدْبِيرَ أُمُورِهِمْ بِمُوجَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ أَحَبُّوا أَمْ كَرِهُوا، فَعَرَفَ ذَلِكَ الْمُوقِنُونَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَلَمْ يَتَّهِمُوهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَخَفِيَ ذَلِكَ عَلَىٰ الْجُهَّالِ بِهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَنَازَعُوهُ تَدْبِيرَهُ، وَقَدَحُوا فِي حِكْمَتِهِ، وَلَمْ يَنْقَادُوا لِحُكْمِهِ، وَعَارَضُوا حُكْمَهُ بِعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَآرَائِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَسِيَاسَاتِهِمُ الْجَائِرَةِ؛ فَلَا لِرَبِّهِمْ عَرَفُوا، وَلَا لِمَصَالِحِهِمْ حَصَّلُوا -وَاللهُ الْمُوَفِّقُ-.

وَمَتَىٰ ظَفَرَ الْعَبْدُ بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ سَكَنَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ فِي جَنَّةٍ لَا يُشْبِهُ نَعِيمَهَا إِلَّا نَعِيمُ جَنَّةِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ، وَالرِّضَا جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَمُسْتَرَاحُ الْعَارِفِينَ؛ فَإِنَّهُ طَيِّبُ النَّفْسِ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَادِيرِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ اخْتِيَارِ اللهِ لَهُ، وَطُمَأْنِينَتُهَا إِلَىٰ أَحْكَامِهِ الدِّينِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ الرِّضَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَمَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ ذَلِكَ، وَهَذَا الرِّضَا هُوَ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِعَدْلِ اللهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَحُسْنِ اخْتِيَارِهِ، فَكُلَّمَا كَانَ بِذَلِكَ أَعْرَفَ كَانَ بِهِ أَرْضَىٰ؛ فَقَضَاءُ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ- فِي عَبْدِهِ دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْمَصْلَحَةِ، وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْبَتَّةَ». (*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «الْفَوَائِدُ» (الْمُحَاضَرَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ)، الِاثْنَيْنِ ١٥ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٤١هـ| ٦-٧-٢٠٢٠م.

«إِنَّ الرَّاضِيَ وَاقِفٌ مَعَ اخْتِيَارِ اللهِ لَهُ، مُعْرِضٌ عَنِ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا مِنْ قُوَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ.

وَقَدِ اجْتَمَعَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: «قَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ مَوْتَ الْفَجْأَةِ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَوَدِدْتُ أَنِّي مَيِّتٌ».

فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: «وَلِمَ؟».

فَقَالَ: «لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنَ الْفِتْنَةِ».

فَقَالَ يُوسُفُ: «لَكِنِّي لَا أَكْرَهُ طُولَ الْبَقَاءِ».

فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: «وَلِمَ تَكْرَهُ الْمَوْتَ؟».

قَالَ: «لَعَلِّي أُصَادِفُ يَوْمًا أَتُوبُ فِيهِ، وَأَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا».

فَقِيلَ لِوُهَيْبٍ: «أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ أَنْتَ؟».

فَقَالَ: «أَنَا لَا أَخْتَارُ شَيْئًا، أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَىٰ اللهِ».

فَقَبَّلَ الثَّوْرِيُّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: «رُوحَانِيَّةٌ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ».

فَهَذَا حَالُ عَبْدٍ قَدِ اسْتَوَتْ عِنْدَهُ حَالَةُ الْبَقَاءِ وَالْمَوْتِ، وَوَقَفَ مَعَ اخْتِيَارِ اللهِ لَهُ مِنْهُمَا.

أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَنْعَ اللهِ ﷻ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الْمُحِبِّ عَطَاءٌ، وَابْتِلَاءَهُ إِيَّاهُ عَافِيَةٌ.

فَالْعَاقِلُ الرَّاضِي: هُوَ الَّذِي يَعُدُّ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ فِيمَا يَكْرَهُهُ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِ فِيمَا يُحِبُّهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: يَا ابْنَ آدَمَ! نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ فِيمَا

تكْرَهُ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا تُحِبُّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: ارْضَ عَنِ اللهِ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ بِكَ؛ فَإِنَّهُ مَا مَنَعَكَ إِلَّا لِيُعْطِيَكَ، وَلَا ابْتَلَاكَ إِلَّا لِيُعَافِيَكَ، وَلَا أَمْرَضَكَ إِلَّا لِيَشْفِيَكَ، وَلَا أَمَاتَكَ إِلَّا لِيُحْيِيَكَ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُفَارِقَ الرِّضَا عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ.

أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُظْهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَارَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَهُ اخْتِيَارٌ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا، وَالْعَبْدُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا؛ فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- الَّذِي اخْتَارَ وُجُودَهُ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَدَّرَهُ لَهُ وَقَضَاهُ؛ مِنْ عَافِيَةٍ وَبَلَاءٍ، وَغِنًىٰ وَفَقْرٍ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ، وَنَبَاهَةٍ وَخُمُولٍ، فَكَمَا تَفَرَّدَ -سُبْحَانَهُ- بِالْخَلْقِ تَفَرَّدَ بِالِاخْتِيَارِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَقَدْ قَالَ -تَعَالَىٰ- لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فَإِذَا تَيَقَّنَ الْعَبْدُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُعَوَّلٌ -بَعْدَ ذَلِكَ- غَيْرَ الرِّضَا بِمَوَاقِعِ الْأَقْدَارِ، وَمَا يَجْرِي بِهِ مِنْ رَبِّهِ الِاخْتِيَارُ»(١).(*).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٦-٢٠٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ)، الْأَحَدُ ١٩ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ١٢-٤-٢٠٢٠م.

«إِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَسْأَلُهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ، وَيُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَأَبْغَضُ خَلْقِهِ عَدُوُّهُ إِبْلِيسُ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَأَلَهُ حَاجَةً فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَمَتَّعَهُ بِهَا؛ وَلَكِنْ لَمَّا لَمْ تَكُنْ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ كَانَتْ زِيَادَةً لَهُ فِي شَقَاوَتِهِ، وَبُعْدِهِ مِنَ اللهِ، وَطَرْدِهِ عَنْهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنِ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ أَمْرٍ، وَسَأَلَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَوْنًا عَلَىٰ طَاعَتِهِ؛ كَانَ مُبْعِدًا لَهُ عَنْ مَرْضَاتِهِ، قَاطِعًا لَهُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ.

فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَاقِلُ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ إِجَابَةَ اللهِ لِسَائِلِيهِ لَيْسَتْ لِكَرَامَةِ السَّائِلِ عَلَيْهِ، بَلْ يَسْأَلُهُ عَبْدُهُ الْحَاجَةَ فَيَقْضِيهَا لَهُ وَفِيهَا هَلَاكُهُ وَشِقْوَتُهُ، وَيَكُونُ قَضَاؤُهَا لَهُ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيْهِ، وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ، وَيَكُونُ مَنْعُهُ مِنْهَا لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، فَيَمْنَعُهُ حِمَايَةً وَصِيَانَةً وَحِفْظًا، لَا بُخْلًا، وَهَذَا إِنَّمَا يَفْعَلُهُ بِعَبْدِهِ الَّذِي يُرِيدُ كَرَامَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَيُعَامِلُهُ بِلُطْفِهِ، فَيَظُنُّ -بِجَهْلِهِ- أَنَّ رَبَّهُ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يُكْرِمُهُ، وَيَرَاهُ يَقْضِي حَوَائِجَ غَيْرِهِ، فَيُسِيءُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَهَذَا حَشْوُ قَلْبِهِ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ-.

فَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ تَسْأَلَهُ شَيْئًا مُعَيَّنًا خِيرَتُهُ وَعَاقِبَتُهُ مُغَيَّبَةٌ عَنْكَ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنْ سُؤَالِهِ بُدًّا فَعَلِّقْهُ عَلَىٰ شَرْطِ عِلْمِهِ -تَعَالَىٰ- فِيهِ الْخِيرَةَ، وَقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِكَ الِاسْتِخَارَةَ، وَلَا تَكُنِ اسْتِخَارَةً بِاللِّسَانِ بِلَا مَعْرِفَةٍ، بَلِ اسْتِخَارَةُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِمَصَالِحِهِ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهَا، وَلَا اهْتِدَاءَ لَهُ إِلَىٰ تَفَاصِيلِهَا، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا، بَلْ إِنْ وُكِلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ هَلَكَ كُلَّ الْهَلَاكِ، وَانْفَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ.

وَإِذَا أَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بِلَا سُؤَالٍ تَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَوْنًا لَكَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَبَلَاغًا إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَلَا يَجْعَلَهُ قَاطِعًا لَكَ عَنْهُ، وَلَا مُبْعِدًا عَنْ مَرْضَاتِهِ»[(١)].(*).

✿✿✿

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠-١٠١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْأَحَدُ ١٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ٥-٤-٢٠٢٠م.

حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام عِنْدَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ

لَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَثَلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ -وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ- فِي مَسْأَلَةِ عَطَاءِ اللهِ وَمَنْعِهِ، وَكَيْفَ تَعَامَلُوا مَعَهَا؛ فَقَدْ أَعْطَى اللهُ نَبِيَّهُ سُلَيْمَانَ عليه السلام **مِنَ الْعَطَاءِ وَالْمُلْكِ مَا لَمْ يُعْطِهِ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، قَالَ -تَعَالَى- عَنْ سُلَيْمَانَ** عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

وَلَقَدْ فَطِنَ سُلَيْمَانُ عليه السلام **إِلَى هَذِهِ النِّعَمِ وَالْعَطَايَا، وَأَدْرَكَ وَاجِبَهُ نَحْوَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ فِي الشُّكْرِ زِيَادَتَهَا وَأَدَاءَ حَقِّهَا، لِذَلِكَ قَالَ سُلَيْمَانُ** عليه السلام **عِنْدَمَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ عَرْشُ بِلْقِيسَ مَلَكَةِ سَبَأٍ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ:** ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

«قَالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ﴾ أَيْ: لِيَخْتَبِرَنِي بِذَلِكَ، فَلَمْ يَغْتَرَّ عليه السلام بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا هُوَ دَأْبُ الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ، بَلْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِبَارٌ مِنْ رَبِّهِ، فَخَافَ أَلَّا يَقُومَ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ هَذَا الشُّكْرَ لَا يَنْتَفِعُ اللهُ بِهِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ نَفْعُهُ إِلَى صَاحِبِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾: غَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِ، كَرِيمٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ، يَعُمُّ بِهِ الشَّاكِرَ وَالْكَافِرَ، إِلَّا أَنَّ شُكْرَ نِعَمِهِ دَاعٍ لِلْمَزِيدِ مِنْهَا، وَكُفْرَهَا دَاعٍ لِزَوَالِهَا»(١).

وَكَذَلِكَ حَالُهُمْ عليهم السلام الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ عِنْدَ الْمَنْعِ وَالِابْتِلَاءِ، فَآتَاهُمُ اللهُ ثَمَرَةَ صَبْرِهِمْ وَرِضَاهُمْ؛ «فَتَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا آدَمَ -عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ مِنَ الِاصْطِفَاءِ وَالِاجْتِبَاءِ، وَالتَّوْبَةِ وَالْهِدَايَةِ، وَرِفْعَةِ الْمَنْزِلَةِ.

وَلَوْلَا تِلْكَ الْمِحْنَةُ الَّتِي جَرَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ إِخْرَاجُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَتَوَابِعُ ذَلِكَ؛ لَمَا وَصَلَ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ، فَكَمْ بَيْنَ حَالَتِهِ الْأُولَىٰ وَحَالَتِهِ الثَّانِيَةِ فِي نِهَايَتِهِ.

وَتَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا الثَّانِي نُوحٍ ﷺ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ وَصَبْرُهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ تِلْكَ الْقُرُونَ كُلَّهَا، حَتَّىٰ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ وَأَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ، وَجَعَلَ الْعَالَمَ بَعْدَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

وَجَعَلَهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ، وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ الرُّسُلِ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَصْبِرَ كَصَبْرِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِالشُّكْرِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣]، وَوَصَفَهُ بِكَمَالِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ أَبِينَا الثَّالِثِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، وَشَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعَمُودِ الْعَالَمِ، وَخَلِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ.

وَتَأَمَّلْ مَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ وَصَبْرُهُ وَبَذْلُهُ نَفْسَهُ للهِ -تَعَالَىٰ-، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ آلَ بِهِ بَذْلُهُ للهِ نَفْسَهُ وَنَصْرُهُ دِينَهُ إِلَىٰ أَنِ اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا لِنَفْسِهِ، وَأَمَرَ رَسُولَه

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٠٩).

وَخَلِيلَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّتَهُ.

وَأُنَبِّهُكَ عَلَىٰ خَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ فِي مِحْنَتِهِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَازَاهُ عَلَىٰ تَسْلِيمِهِ وَلَدَهُ لِأَمْرِ اللهِ بِأَنْ بَارَكَ فِي نَسْلِهِ وَكَثَّرَهُ حَتَّىٰ مَلَأَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَتَكَرَّمُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، فَمَنْ تَرَكَ لِوَجْهِهِ أَمْرًا أَوْ فَعَلَهُ لِوَجْهِهِ بَذَلَ اللهُ لَهُ أَضْعَافَ مَا تَرَكَهُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَجَازَاهُ بِأَضْعَافِ مَا فَعَلَهُ لِأَجْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

فَلَمَّا أُمِرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، فَبَادَرَ بِأَمْرِ اللهِ، وَوَافَقَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ أَبَاهُ، رِضًا مِنْهُمَا وَتَسْلِيمًا، وَعَلِمَ اللهُ مِنْهُمَا الصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ؛ فَدَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَأَعْطَاهُمَا مَا أَعْطَاهُمَا مِنْ فَضْلِهِ.

وَكَانَ مِنْ بَعْضِ عَطَايَاهُ أَنْ بَارَكَ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا حَتَّىٰ مَلَئُوا الْأَرْضَ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْوَلَدِ إِنَّمَا هُوَ التَّنَاسُلُ وَتَكْثِيرُ الذُّرِّيَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فَغَايَةُ مَا كَانَ يَحْذَرُ وَيَخْشَىٰ مِنْ ذَبْحِ وَلَدِهِ انْقِطَاعُ نَسْلِهِ، فَلَمَّا بَذَلَ وَلَدَهُ للهِ، وَبَذَلَ الْوَلَدُ نَفْسَهُ، ضَاعَفَ اللهُ النَّسْلَ وَبَارَكَ فِيهِ، وَكَثُرَ حَتَّىٰ مَلَئُوا الدُّنْيَا، وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فِي ذُرِّيَّتِهِ خَاصَّةً، وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ الْكَلِيمِ مُوسَىٰ عليه السلام وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ مِحْنَتُهُ مِنْ أَوَّلِ وِلَادَتِهِ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ أَمْرِهِ، حَتَّىٰ كَلَّمَهُ اللهُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَكْلِيمًا، وَكَتَبَ لَهُ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَرَفَعَهُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ السَّمَاوَاتِ.

وَاحْتَمَلَ لَهُ مَا لَا يَحتَمِلُ لِغَيْرِهِ، فَإِنَّهُ رَمَىٰ الْأَلْوَاحَ عَلَىٰ الْأَرْضِ حَتَّىٰ تَكَسَّرَتْ، وَأَخَذَ بِلِحْيَةِ نَبِيِّ اللهِ هَارُونَ وَجَرَّهُ إِلَيْهِ، وَلَطَمَ وَجْهَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، وَخَاصَمَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَبُّهُ يُحِبُّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا سَقَطَ شَيْءٌ مِنْهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَلَا سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدُهُ، بَلْ هُوَ الْوَجِيهُ عِنْدَ اللهِ، الْقَرِيبُ.

وَلَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ السَّوَابِقِ، وَتَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ الْعِظَامِ فِي اللهِ، وَمُقَاسَاةِ الْأَمْرِ الشَّدِيدِ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، ثُمَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا آذَوْهُ بِهِ وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ للهِ.. لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ حَالَ الْمَسِيحِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَبْرَهُ عَلَىٰ قَوْمِهِ، وَاحْتِمَالَهُ فِي اللهِ مَا تَحَمَّلَهُ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَانْتَقَمَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَقَطَّعَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَمَزَّقَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَسَلَبَهُمْ مُلْكَهُمْ وَفَخْرَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الدَّهْرِ.

فَإِذَا جِئْتَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَتَأَمَّلْتَ سِيرَتَهُ مَعَ قَوْمِهِ، وَصَبْرَهُ فِي اللهِ، وَاحْتِمَالَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، وَتَلَوُّنَ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ مِنْ سِلْمٍ وَحَرْبٍ، وَغِنَىٰ وَفَقْرٍ، وَخَوْفٍ وَأَمْنٍ، وَإِقَامَةٍ فِي وَطَنِهِ وَظَعْنٍ عَنْهُ وَتَرْكِهِ للهِ، وَقَتْلِ أَحِبَّائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَذَىٰ الْكُفَّارِ لَهُ بِسَائِرِ أَنْوَاعِ الْأَذَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَالسِّحْرِ وَالْكَذِبِ، وَالِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ وَالْبُهْتَانِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ صَابِرٌ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ، فَلَمْ يُؤْذَ نَبِيٌّ مَا أُوذِيَ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ فِي اللهِ مَا احْتَمَلَهُ، وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ مَا أُعْطِيَ.

فَرَفَعَ اللهُ لَهُ ذِكْرَهُ، وَقَرَنَ اسْمَهُ بِاسْمِهِ، وَجَعَلَهُ سَيِّدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَسِيلَةً، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَهُ جَاهًا، وَأَسْمَعَهُمْ عِنْدَهُ شَفَاعَةً، وَكَانَتْ تِلْكَ الْمِحَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ عَيْنَ كَرَامَتِهِ، وَهِيَ مِمَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا شَرَفًا وَفَضْلًا، وَسَاقَهُ بِهَا إِلَىٰ أَعْلَىٰ الْمَقَامَاتِ.

وَهَذَا حَالُ وَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ، كُلٌّ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْمِحْنَةِ يَسُوقُهُ اللهُ بِهِ إِلَىٰ كَمَالِهِ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ لَهُ، وَمَنْ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ فَحَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا حَظُّ مَنْ خُلِقَ لَهَا وَخُلِقَتْ لَهُ، وَجُعِلَ خَلَاقُهُ وَنَصِيبُهُ فِيهَا، فَهُوَ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغَدًا، وَيَتَمَتَّعُ فِيهَا حَتَّىٰ يَنَالَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الْكِتَابِ.

يُمْتَحَنُ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَهُوَ فِي دَعَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ، وَيَخَافُونَ وَهُوَ آمِنٌ، وَيَحْزَنُونَ وَهُوَ وَأَهْلُهُ فِي سُرُورٍ، لَهُمْ شَأْنٌ وَلَهُ شَأْنٌ، وَهُوَ فِي وَادٍ وَهُمْ فِي وَادٍ، هَمُّهُ مَا يُقِيمُ بِهِ جَاهَهُ، وَيَسْلَمُ بِهِ مَالُهُ، وَتُسْمَعُ بِهِ كَلِمَتُهُ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَزِمَ، وَرَضِيَ مَنْ رَضِيَ، وَسَخِطَ مَنْ سَخِطَ.

وَهَمُّهُمْ إِقَامَةُ دِينِ اللهِ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ، وَإِعْزَازُ أَوْلِيَائِهِ، وَأَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَيَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ لَا غَيْرُهُ، وَرَسُولُهُ الْمُطَاعَ لَا سِوَاهُ.

فَلِلَّهِ -سُبْحَانَهُ- مِنَ الْحِكَمِ فِي ابْتِلَائِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَتَقَاصَرُ عُقُولُ الْعَالَمِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَهَلْ وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَىٰ الْمَقَامَاتِ الْمَحْمُودَةِ، وَالنِّهَايَاتِ الْفَاضِلَةِ.. إِلَّا عَلَىٰ جِسْرِ الْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ؟!

كَــذَا الْمَعَــالِي إِذَا مَــا رُمْــتَ تُــدْرِكُهَا

فَـاعْبُرْ إِلَيْهَـا عَلَـىٰ جِسْـرٍ مِـنَ التَّعَـبِ[1]»[2].[*].

๑ ❁ ❁ ❁ ๑

(١) البيت مأخوذ من قول أبي تمام حَبِيْب بن أَوْسِ الطَّائِيّ (المتوفي: ٢٣١هـ) في القصيدة البائية المشهورة في «**ديوانه**»: (١/ ٤٠، القصيدة رقم ٣)، التي يمدح فيها المعتصم بعد فتح عمورية، ويقول في مطلعها [من البسيط]:

(السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ... فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ)

فقال أَبُو تَمَّام (١/ ٧٣، البيت: ٦٨):

(بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا... تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ)

(٢) «**مفتاح دار السعادة**»: (٢/ ٨٤٧-٨٥٣)، وانظر: «**نضرة النعيم**»: (١/ ١٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

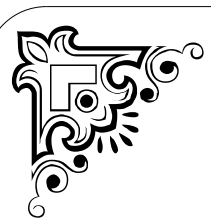

رُبَّمَا كَانَ الْمَنْعُ رَحْمَةً وَالْعَطَاءُ اسْتِدْرَاجًا!

إِنَّ السَّبَبَ فِي الْعَطَاءِ أَوِ الْمَنْعِ هُوَ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، **وَلَيْسَتْ تَوْسِعَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ إِكْرَامًا مِنْهُ -سُبْحَانَهُ- لَهُ، وَلَا تَضْيِيقُهُ عَلَيْهِ إِهَانَةً لَهُ، بَلْ ذَلِكَ اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾** بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

«يَقُولُ -تَعَالَىٰ- مُنْكِرًا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيَخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِكْرَامٌ لَهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وَكَذَلِكَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ؛ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ إِهَانَةٌ لَهُ.

قَالَ اللهُ: ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زُعِمَ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا؛ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَيُضَيِّقُ عَلَىٰ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَالَيْنِ؛ إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَنْ

يَشْكُرَ اللهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَنْ يَصْبِرَ»(١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

«يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ، وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾ أَيْ: وَسَأُمْلِي لَهُمْ، أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ؛ ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ أَيْ: قَوِيٌّ شَدِيدٌ»(٢).

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٣): «يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- بِأَنَّ الدُّنْيَا لَا تُسَاوِي عِنْدَهُ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٣٩٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٦٦).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٠٢).

شَيْئًا، وَأَنَّهُ لَوْ لَا لُطْفُهُ وَرَحْمَتُهُ بِعِبَادِهِ الَّتِي لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهَا شَيْئًا؛ لَوَسَّعَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوْسِيعًا عَظِيمًا، وَلَجَعَلَ ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أَيْ: سَلَالِيمَ وَدَرَجًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: عَلَىٰ سُطُوحِهِمْ.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَجَعَلَ لَهُمْ زُخْرُفًا، أَيْ: وَلَزَخْرَفَ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ بِأَنْوَاعِ الزَّخَارِفِ؛ وَلَكِنْ مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ بِعِبَادِهِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنَ التَّسَارُعِ فِي الْكُفْرِ وَكَثْرَةِ الْمَعَاصِي بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا.

فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا -وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ- يَمْنَعُ الْعِبَادَ بَعْضَ أُمُورِ الدُّنْيَا وَعَطَاءَاتِهَا مَنْعًا عَامًّا أَوْ مَنْعًا خَاصًّا لِمَصَالِحِهِمْ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْآيَاتِ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهِيَ مُنَغَّصَةٌ مُكَدَّرَةٌ فَانِيَةٌ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ عِنْدَ اللهِ -تَعَالَىٰ- خَيْرٌ لِلْمُتَّقِينَ لِرَبِّهِمْ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ -فَهَذِهِ هِيَ التَّقْوَىٰ؛ أَنْ تَمْتَثِلَ الْأَمْرَ، وَأَنْ تَجْتَنِبَ النَّهْيَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَأَنْتَ مِنَ الْمُتَّقِينَ-؛ لِأَنَّ نَعِيمَهَا تَامٌّ كَامِلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَفِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ؛ فَمَا أَشَدَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الدَّارَيْنِ -بَيْنَ دَارِ الدُّنْيَا وَدَارِ الْآخِرَةِ-!».

*** وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ فَوَائِدُ مُتَكَاثِرَاتٌ:**

- أَنَّ مَا يُعْطِيهِ اللهُ جَلَّوَعَلَا الْكُفَّارَ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا إِنَّمَا ذَلِكَ لِهَوَانِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ، وَحَقَارَتِهَا، وَابْتِلَاءً لَهُمْ وَفِتْنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَىٰ بِهَا**»(١).

لِهَذَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه عِنْدَمَا صَعِدَ إِلَىٰ مَشْرُبَةٍ -وَالْمَشْرُبَةُ بِضَمِّ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا: الْغُرْفَةُ وَالْعُلِّيَّةُ- لَمَّا آلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نِسَائِهِ، فَرَأَىٰ النَّبِيَّ عَلَىٰ رِمَالِ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَا عُمَرَ بِالْبُكَاءِ، وَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا كِسْرَىٰ وَقَيْصَرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ!!».

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا مِنْ عُمَرَ رضي الله عنه، وَقَالَ: «**أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟!!**»، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا**».

وفِي رِوَايَةٍ: «**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟!!**»(٢). وَهَذَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

- وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّ كَثْرَةَ النِّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ الَّتِي يُعْطِيهَا اللهُ لِعَبْدِهِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ لِعَبْدِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (١٤٧٩).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ وَهُوَ** -أَيِ: الْعَبْدُ- **مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ؛ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنهُ اسْتِدْرَاجٌ**»(١). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَالْحَدِيثُ مَخُوفٌ جِدًّا، وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَأَمَّلَهُ مَلِيًّا، وَأَنْ نَخْشَعَ عِنْدَهُ.

«**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ** -أَيْ: مَا يُحِبُّ الْعَبْدُ- **وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ** -عَلَىٰ مَعَاصِي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ-؛ **فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ**».

- **وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَاتِ: أَنَّ فِيهَا التَّرْغِيبَ فِي الْآخِرَةِ، وَالتَّزْهِيدَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ** -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

- **وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: بَيَانُ حَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَهَوَانِهَا عَلَىٰ اللهِ.**

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(٢). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَتَأَمَّلْ فِي الْحَدِيثِ؛ «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا**» كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا بِمَجْمُوعِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ كُنُوزٍ وَزُخْرُفٍ، وَزِينَةٍ وَبَهْجَةٍ، وَنَضَارَتِهَا وَحُسْنِهَا، وَمُلْكِهَا.. «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»، مُنْذُ خَلَقَهَا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٨٦٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤١٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٠).

إِلَىٰ أَنْ يَرِثَهَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ!

تَأَمَّلْ فِي عُمُرِكَ أَنْتَ؛ مَا يَبْلُغُ مِنْ مَدَىٰ مَا بَيْنَ خَلْقِ الدُّنْيَا إِلَىٰ فَنَائِهَا؟!!

وَمْضَةُ بَرْقٍ، هَذَا عُمُرُكَ!

مِنْ فَوَائِدِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ: أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يَمْنَعُ عَبْدَهُ بَعْضًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا لِيَنَالَ مَنْزِلَةً عَالِيَةً عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَلَا تَأْسَ عَلَىٰ فَائِتٍ!

إِيَّاكَ أَنْ تَأْسَىٰ عَلَىٰ فَائِتٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَالْكُلُّ إِلَىٰ زَوَالٍ، بَلْ إِنَّهُ يَمْنَعُكَ لِيُعْطِيَكَ، إِنَّمَا حَرَمَكَ لِيُعْطِيَكَ، كَمَا أَنَّهُ يُمِيتُكَ لِيُحْيِيَكَ، كَمَا أَنَّهُ يُفْقِرُكَ لِيُغْنِيَكَ.

«إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»(١).

تَأَمَّلْ فِي هَذَا، وَأَصْغِ لَهُ بِأُذُنِ قَلْبِكَ!(*).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ مُعَلِّقًا عَلَىٰ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ(٣): «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(٤): «فَبَيَّنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (١٤٧٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة - الْأَحَدُ ١٧ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٤٤هـ| ١١-١٢-٢٠٢٢م.

(٣) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٢/ ٤١٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٩٢) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أَحَدُهُمَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ وَهُوَ أَلَّا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ اللهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُسْأَلُ إِلَّا هُوَ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ؛ وَهُوَ بَيَانُ مَا يَنْفَعُ وَمَا لَا يَنْفَعُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أَوْ دُنْيَا أَوْ رِئَاسَةً كَانَ ذَلِكَ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللهِ، مُنْجِيًا لَهُ مِنْ عَذَابِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

يَقُولُ: مَا كُلُّ مَنْ وَسَّعْتُ عَلَيْهِ أَكْرَمْتُهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرْتُ عَلَيْهِ أَكُونُ قَدْ أَهَنْتُهُ، بَلْ هَذَا ابْتِلَاءٌ؛ لِيَشْكُرَ الْعَبْدُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ، وَيَصْبِرَ عَلَىٰ الضَّرَّاءِ؛ فَمَنْ رُزِقَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ كَانَ كُلُّ قَضَاءٍ يَقْضِيهِ اللهُ خَيْرًا لَهُ، كَمَا فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ: أَنْ يَعْبُدَ اللهَ، وَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا؛ فَيُطِيعُهُ، وَيُطِيعُ رُسُلَهُ، وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

وَأَمَّا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَيَدْخُلُ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا أَمَرَ بِهِ

(١) تقدم تخريجه.

وَأَوْجَبَهُ وَأَرْضَاهُ، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ، وَيَفْعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَيَسْتَعِينَ اللهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهُوَ تَوْحِيدٌ لَهُ، فَيَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]».

«فَلَا تَظُنَّ أَنَّ عَطَاءَهُ كُلَّ مَا أَعْطَىٰ لِكَرَامَةِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْعَهُ كُلَّ مَا يَمْنَعُهُ لِهَوَانِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ عَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ يَمْتَحِنُ بِهِمَا عِبَادَهُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر: ١٧] أَيْ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَعْطَيْتُهُ وَنَعَّمْتُهُ وَخَوَّلْتُهُ فَقَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَمَا ذَاكَ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنِّي وَامْتِحَانٌ لَهُ؛ أَيَشْكُرُنِي فَأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبَهُ إِيَّاهُ، وَأُخَوِّلَهُ غَيْرَهُ؟

وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يَفْضُلُ عَنْهُ فَذَلِكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ مِنِّي لَهُ؛ أَيَصْبِرُ فَأُعْطِيَهُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، أَمْ يَتَسَخَّطُ فَيَكُونَ حَظُّهُ السُّخْطَ؟

فَرَدَّ اللهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَىٰ مَنْ ظَنَّ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ إِكْرَامٌ، وَأَنَّ الْفَقْرَ إِهَانَةٌ، فَقَالَ: لَمْ أَبْتَلِ عَبْدِي بِالْغِنَىٰ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالْفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيَّ.

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَىٰ الْمَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ؛ فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يُوَسِّعُ عَلَىٰ الْكَافِرِ لَا لِكَرَامَتِهِ، وَيُقَتِّرُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ لَا لِإِهَانَتِهِ، إِنَّمَا يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَيُهِينُ مَنْ يُهِينُهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ

وَمَعْصِيَتِهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ هَذَا، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»(١). (*).

فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَمُنُّ بِالْعَطَاءِ كَمَا يَمُنُّ بِالْمَنْعِ، وَيَمُنُّ بِالْمَرَضِ كَمَا يَمُنُّ بِالصِّحَّةِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(٣). (*/٢).

❀❀❀

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْأَحَدُ ١٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ٥-٤-٢٠٢٠م.

(٣) ولو تأمل العبد وفكر لعلم أن فضل الله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها، أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلىٰ هذه الدار إلا ليتأهب للقدوم عليه، ويسلك الطريق الموصلة إليه. (موسوعة فقه القلوب).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْحِكْمَةُ، الْجُودُ» - السَّبْتُ ١٩ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٩-٦-٢٠١٢م.

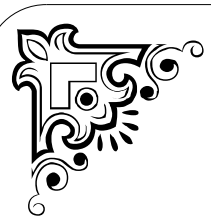

طَلَاقَةُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ

إِنَّ اللهَ ﷻ هُوَ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، **وَقُدْرَتُهُ -سُبْحَانَهُ- مُطْلَقَةٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَحُدُّ قُدْرَتَهُ حَدٌّ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠]، **وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

«وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَانْفِرَادِهِ بِالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أَيْ: لَا نَبَاتَ فِيهَا، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أَيِ: الْمَطَرَ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أَيْ: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، ﴿وَرَبَتْ﴾: ثُمَّ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، فَيُحْيِي بِهِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بَعْدَ مَوْتِهَا وَهُمُودِهَا ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ؛ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾: فَكَمَا لَمْ تَعْجَزْ قُدْرَتُهُ عَنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا لَا تَعْجَزُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ»[١].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٢٨).

وَمِنْ لُطْفِ اللهِ ﷻ بِعِبَادِهِ، وَعَظِيمِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ: أَنَّهُ يُفَرِّجُ بِقُدْرَتِهِ هُمُومَ عِبَادِهِ، وَيُزِيلُ كُرُبَاتِهِمْ، وَيَأْتِي -سُبْحَانَهُ- بِالْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَبِالْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ؛ حَيْثُ يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ١-٦].

«قَدْ فَتَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وَوَسَّعْنَاهُ لِلْإِيمَانِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ، وَجَعَلْنَاهُ مُنْبَسِطًا رَاضِيًا، وَمُتَحَمِّلًا لِأَعْبَاءِ حَمْلِ الرِّسَالَةِ، وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ، وَمُتَحَمِّلًا أَخْلَاقَهُمْ.

وَحَطَطْنَا عَنْكَ مَا أَثْقَلَ ظَهْرَكَ مِنْ هُمُومٍ كُبْرَىٰ لِإِصْلَاحِ قَوْمِكَ، وَإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ خَبَائِثِهَا وَظُلْمِهَا وَفَسَادِهَا.

فَبَيَّنَ لَكَ وَسَائِلَ التَّبْلِيغِ، وَأَسَالِيبَ التَّرْبِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ، فَأَلْقَىٰ عَنْكَ كُلَّ هُمُومِكَ بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ وَأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ تُوَضِّحُ لَكَ مَنْهَجَ دَعْوَتِكَ.

وَأَعْلَيْنَا لَكَ -يَا رَسُولَ اللهِ- ذِكْرَكَ الْحَسَنَ؛ إِذْ جَعَلْتُكَ رَسُولًا، وَاسْتَمَرَّ عَطَائِي لَكَ حَتَّىٰ إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَالتَّشَهُّدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِنَّ مَعَ الشِّدَّةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنْ جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ يُسْرًا وَرَخَاءً عَاجِلًا، فَإِنْ يُظْهِرْكَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَنْقَادُوا لِلْحَقِّ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ؛ فَذَلِكَ تَيْسِيرٌ مِنْ بَعْدِ التَّعْسِيرِ.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا كَثِيرًا كَذَلِكَ؛ فَكُنْ عَلَىٰ أَمَلٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَتَلَقَّ الْأَحْدَاثَ الْحَاضِرَةَ الْمُؤْلِمَةَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، وَبِنَفْسٍ مُنْشَرِحَةٍ مَشْحُونَةٍ بِالْأَمَلِ فِيمَا سَيَأْتِي، صَابِرَةٍ عَلَىٰ الْعُسْرِ الْوَاقِعِ.

فَالنَّفْسُ الْمَشْحُونَةُ بِأَمَلِ الْيُسْرِ الْقَادِمِ يَضْمُرُ لَدَيْهَا أَلَمُ الْعُسْرِ الْقَائِمِ، وَمُنْتَظِرُ الْفَجْرِ الْقَرِيبِ لَا يَشْعُرُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْقَاتِمِ(١)»(٢).(*).

«قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾: بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ أَنَّهُ كُلَّمَا وُجِدَ عُسْرٌ وَصُعُوبَةٌ فَإِنَّ الْيُسْرَ يُقَارِنُهُ وَيُصَاحِبُهُ؛ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلَ الْعُسْرُ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلَ عَلَيْهِ الْيُسْرُ فَأَخْرَجَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(٤).

وَتَعْرِيفُ (الْعُسْرِ) فِي الْآيَتَيْنِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ، وَتَنْكِيرُ (الْيُسْرِ) يَدُلُّ عَلَىٰ تَكْرَارِهِ؛ فَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ.

وَفِي تَعْرِيفِهِ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ الدَّالِّ عَلَىٰ الِاسْتِغْرَاقِ وَالْعُمُومِ: يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ عُسْرٍ -وَإِنْ بَلَغَ مِنَ الصُّعُوبَةِ مَا بَلَغَ- فَإِنَّهُ فِي آخِرِهِ التَّيْسِيرُ مُلَازِمٌ لَهُ»(٥).

وَقَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ**﴾ [الأنعام: ٦٤].

«**قُلْ لَهُمْ**: اللهُ -سُبْحَانَهُ- يُخَلِّصُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَمِنَ الظُّلُمَاتِ، وَمِنْ كُلِّ غَمٍّ شَدِيدٍ»(٦).(*/٢).

---

(١) «**الْقَاتِم**» أَيْ: الْأَسْوَد.

(٢) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٥٩٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الشرح: ١-٦].

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْمِشْكَاةِ» (٥٣٠٢)

(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٩٦).

(٦) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص١٣٥).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»-
=

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

«وَهُوَ الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ عَلَىٰ حِمَايَةِ مَنِ احْتَمَىٰ بِهِ، مَنِ اسْتَجَارَ بِهِ فَأَجَارَهُ كَفَاهُ وَحَمَاهُ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَعْدَ اللهِ أَحَدًا يُؤَمِّنُهُ فَيَكْفِيهِ وَيَحْمِيهِ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ»(١). (*).

فَإِذَا أُغْلِقَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَبْوَابُ، وَضَاقَتْ بِهِ السُّبُلُ، وَبَلَغَتْ بِهِ الشِّدَّةُ مُنْتَهَاهَا؛ فَلْيَلْجَأْ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ لِيَفْتَحَ لَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَرْزُقَهُ بِقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣].

«وَمَنْ يَخَفِ اللهَ فَيَعْمَلْ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَيَجْتَنِبْ مَا نَهَاهُ عَنْهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ، وَيُيَسِّرْ لَهُ أَسْبَابَ الرِّزْقِ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِ، وَلَا يَكُونُ فِي حُسْبَانِهِ.

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ كَافِيهِ مَا أَهَمَّهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ؛ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ مَطْلُوبٌ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ،

=

[الأنعام: ٦٤].

(١) «**المعين علىٰ تدبر الكتاب المبين**»: (ص٣٤٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[المؤمنون: ٨٨].

وَتَقْدِيرًا لَا يُجَاوِزُهُ»(١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦].

«أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ مُحَمَّدًا وَعِيدَ الْمُشْرِكِينَ وَكَيْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَنَالُوهُ بِسُوءٍ؟! بَلَىٰ؛ إِنَّهُ سَيَكْفِيهِ فِي أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ، وَيُخَوِّفُونَكَ -أَيُّهَا الرَّسُولُ- بِآلِهَتِهِمُ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا سَتُؤْذِيكَ، وَمَنْ يَخْذُلْهُ اللهُ فَيُضِلَّهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَهْدِيهِ إِلَيْهِ»(٢).

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ قَوْلَهُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق: ١].

فَمَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَى الْمَرْءِ الْمِحْنَةُ فَلَا يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ «فَإِنَّ الرَّجَاءَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالِاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَالْإِيَاسُ يُوجِبُ لَهُ التَّثَاقُلَ وَالتَّبَاطُؤَ، وَأَوْلَىٰ مَا رَجَا الْعِبَادُ: فَضْلُ اللهِ، وَإِحْسَانُهُ، وَرَحْمَتُهُ وَرَوْحُهُ»(٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٥٥٨).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٤٦٢).

(٣) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: (ص ٤٠٤).

وَرَوْحُ اللهِ هُنَا: رَحْمَتُهُ(١) الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَجُوزُ الْوُقُوفُ مِنْهَا مَوْقِفَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ؛ مَهْمَا اشْتَدَّتْ بِالْإِنْسَانِ الْمِحَنُ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِ الرَّزَايَا؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ الْفَرَجِ، وَتَفْرِيجِ الْكَرْبِ، وَتَبْدِيدِ الْخُطُوبِ، وَالشَّكُّ فِي ذَلِكَ مَدْعَاةٌ لِنِسْبَةِ النَّقْصِ وَالْعَجْزِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَاعْتِقَادُ ذَلِكَ بِاللهِ ﷻ كُفْرٌ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وَلَقَدْ نَهَىٰ اللهُ ﷻ عَنْ هَذَا الْيَأْسِ وَذَلِكَ الْقُنُوطِ؛ مَهْمَا كَانَتِ الْحَالُ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الْعَبْدُ، وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا الشِّدَّةُ.(*).

وَالْيَقِينُ فِي طَلَاقَةِ قُدْرَةِ الْحَقِّ جَلَّ وَعَلَا **سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَإِجَابَتُهُ -سُبْحَانَهُ- دُعَاءَ الدَّاعِينَ، وَتَفْرِيجُهُ بِقُدْرَتِهِ هُمُومَ الْمَهْمُومِينَ سُنَّةُ الْكَرِيمِ** جَلَّ وَعَلَا **فِي خَلْقِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-:** ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

«أَعِبَادَةُ مَا تُشْرِكُونَ بِاللهِ خَيْرٌ، أَمِ الَّذِي يُجِيبُ الْمَكْرُوبَ إِذَا دَعَاهُ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ النَّازِلَ بِهِ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ لِمَنْ سَبَقَكُمْ فِي الْأَرْضِ؟!!

---

(١) أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «**التَّفْسِيرِ**»: (٢/ ٢٢٢، رقم ١٣٣٧)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «**جَامِعِ الْبَيَانِ**»: (١٣/ ٤٩)، ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «**التَّفْسِيرِ**»: (٧/ ٢١٩٠، رقم ١١٩١١)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، قَالَ: «**مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**».
وقال الضحاك والسدي، بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةِ: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

أَمَعْبُودٌ مَعَ اللهِ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ؟!!

قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ وَتَعْتَبِرُونَ؛ فَلِذَلِكَ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ».

هَذَا نُوحٌ عليه السلام دَعَا رَبَّهُ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

«فَدَعَا نُوحٌ رَبَّهُ أَنِّي ضَعِيفٌ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَؤُلَاءِ؛ فَانْتَصِرْ لِي بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِكَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِكَ»(١).

لَقَدْ تَجَلَّتْ طَلَاقَةُ قُدْرَتِهِ -سُبْحَانَهُ- فِي الْفَرَجِ وَالْيُسْرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٠-١٥].

«فَأَجَابَ اللهُ سُؤَالَهُ، فَانْتَصَرَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أَيْ: كَثِيرٍ جِدًّا مُتَتَابِعٍ.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فَجَعَلَتِ السَّمَاءُ يَنْزِلُ مِنْهَا مِنَ الْمَاءِ شَيْءٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَتَفَجَّرَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا؛ حَتَّىٰ التَّنُّورُ الَّذِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِوُجُودِ الْمَاءِ فِيهِ؛ فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ مَنْبَعًا لِلْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ النَّارِ.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أَيْ: مَاءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ﴾ مِنَ اللهِ لَهُ بِذَلِكَ، ﴿قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أَيْ: قَدْ كَتَبَهُ اللهُ فِي الْأَزَلِ وَقَضَاهُ؛ عُقُوبَةً لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الطَّاغِينَ.

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٨٢).

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ أَيْ: وَنَجَّيْنَا عَبْدَنَا نُوحًا عَلَىٰ السَّفِينَةِ ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَالدُّسُرِ أَيِ: الْمَسَامِيرِ الَّتِي قَدْ سُمِرَتْ بِهَا أَلْوَاحُهَا، وَشُدَّ بِهَا أَسْرُهَا.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ: تَجْرِي بِنُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَمَنْ حَمَلَهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ بِرِعَايَةٍ مِنَ اللهِ، وَحِفْظٍ مِنْهُ لَهَا عَنِ الْغَرَقِ، وَنَظَرٍ وَكَلَاءَةٍ مِنْهُ -تَعَالَىٰ-، وَهُوَ نِعْمَ الْحَافِظُ الْوَكِيلُ؛ ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ أَيْ: فَعَلْنَا بِنُوحٍ مَا فَعَلْنَا مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ جَزَاءً لَهُ؛ حَيْثُ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ، وَكَفَرُوا بِهِ، فَصَبَرَ عَلَىٰ دَعْوَتِهِمْ، وَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ رَادٌّ، وَلَا صَدَّهُ عَنْ ذَلِكَ صَادٌّ، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الْآيَةَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّا أَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ، وَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ؛ جَزَاءً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ عَلَىٰ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الْكَافِ.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ أَيْ: وَلَقَدْ تَرَكْنَا قِصَّةَ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ آيَةً يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُتَذَكِّرُونَ؛ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ عَصَىٰ الرُّسُلَ وَعَانَدَهُمْ أَهْلَكَهُ اللهُ بِعِقَابٍ عَامٍّ شَدِيدٍ، أَوْ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَىٰ السَّفِينَةِ وَجِنْسِهَا، وَأَنَّ أَصْلَ صَنْعَتِهَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام، ثُمَّ أَبْقَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ صَنْعَتَهَا وَجِنْسَهَا بَيْنَ النَّاسِ؛ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ رَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَعِنَايَتِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَبَدِيعِ صَنْعَتِهِ؛ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ أَيْ: فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ لِلْآيَاتِ، مُلْقٍ ذِهْنَهُ وَفِكْرَتَهُ لِمَا يَأْتِيهِ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْبَيَانِ وَالْيُسْرِ؟!!»[1].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٧٢).

ثُمَّ تَجَلَّتْ طَلَاقَةُ قُدْرَتِهِ -سُبْحَانَهُ- فِي إِعَادَةِ حَالَةِ السُّكُونِ وَالِاسْتِقْرَارِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

«لَمَّا أَغْرَقَهُمُ اللهُ -يَعْنِي: الْكَافِرِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام-، وَنَجَّىٰ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الَّذِي خَرَجَ مِنْكِ، وَالَّذِي نَزَلَ إِلَيْكِ، أَيِ: ابْلَعِي الْمَاءَ الَّذِي عَلَىٰ وَجْهِكِ، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ فَامْتَثَلَتَا لِأَمْرِ اللهِ، فَابْتَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا، وَأَقْلَعَتِ السَّمَاءُ، فَنَضَبَ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، وَقُضِيَ الأَمْرُ بِهَلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ، وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَاسْتَوَتِ السَّفِينَةُ عَلَىٰ الْجُودِيِّ، أَيْ: أَرْسَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ فِي أَرْضِ الْمَوْصِلِ.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: أُتْبِعُوا بَعْدَ هَلَاكِهِمْ لَعْنَةً وَبُعْدًا، وَسُحْقًا لَا يَزَالُ مَعَهُمْ»(١).

وَهَذَا يُونُسُ عليه السلام يَدْعُو رَبَّهُ فِي شِدَّتِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَتَتَجَلَّى قُدْرَتُهُ -سُبْحَانَهُ- فِي إِزَالَةِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٤٠).

وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ -أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ- قِصَّةَ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عليه السلام صَاحِبِ الْحُوتِ، حِينَ انْصَرَفَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِبًا لَهُ؛ مِنْ أَجْلِ دِينِ رَبِّهِ، ضَائِقًا صَدْرُهُ بِعِصْيَانِهِمْ دُونَ أَنْ نَأْمُرَهُ بِفِرَاقِهِمْ.

وَظَنَّ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ؛ عِقَابًا لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا، فَابْتَلَاهُ اللهُ بِشِدَّةِ الضِّيقِ وَالْحَبْسِ، وَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ.

فَنَادَىٰ رَبَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ -ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةِ جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ-، تَائِبًا مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ بِتَرْكِهِ الصَّبْرَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، قَائِلًا: لَا إِلَهَ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنْتَ، تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيكٍ، وَعَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ وَإِلَاهِيَّتِكَ.

أُؤَكِّدُ اعْتِرَافِي بِذَنْبِي؛ إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِبًا قَوْمِي الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي بِانْصِرَافِي عَنْهُمْ.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعَاءَهُ، وَخَلَّصْنَاهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ عَلَىٰ الْيَابِسَةِ قَرِيبًا مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَفَعَلَ.

وَمِثْلُ هَذَا التَّخْلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ مِنَ الْكُرُوبِ، ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِيفِنَا بِعِبَادِنَا إِذَا دَعَوْنَا وَاسْتَغَاثُوا بِنَا.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنبياء: ٨٧-٨٨]».

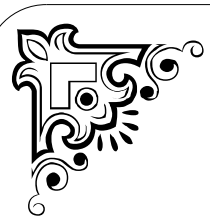
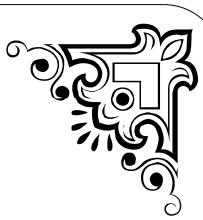

التَّقْوَى وَحُسْنُ التَّوَكُّلِ
سَبِيلُ تَحْصِيلِ عَطَاءِ وَرَحْمَةِ الرَّحْمَنِ

إِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ ﷻ لَا يُنَالُ بِمَعْصِيَتِهِ، إِنَّمَا يُنَالُ بِطَاعَتِهِ وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

«﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أَيْ: طَيِّبُ التُّرْبَةِ وَالْمَادَّةِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ مَطَرٌ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ الَّذِي هُوَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أَيْ: بِإِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ؛ فَلَيْسَتِ الْأَسْبَابُ مُسْتَقِلَّةً بِوُجُودِ الْأَشْيَاءِ حَتَّىٰ يَأْذَنَ اللهُ بِذَلِكَ.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ مِنَ الْأَرَاضِي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ أَيْ: إِلَّا نَبَاتًا خَاسًّا لَا نَفْعَ فِيهِ وَلَا بَرَكَةَ.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أَيْ: نُنَوِّعُهَا، وَنُبَيِّنُهَا، وَنَضْرِبُ فِيهَا الْأَمْثَالَ وَنَسُوقُهَا لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ اللهَ بِالِاعْتِرَافِ بِنِعَمِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِهَا، وَصَرْفِهَا فِي مَرْضَاةِ اللهِ؛ فَهُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا فَصَّلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهَا مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ الْوَاصِلَةِ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَيَتَلَقَّوْنَهَا مُفْتَقِرِينَ إِلَيْهَا، فَرِحِينَ بِهَا، فَيَتَدَبَّرُونَهَا وَيَتَأَمَّلُونَهَا، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ مِنْ

مَعَانِيهَا بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِمْ، وَهَذَا مِثَالٌ لِلْقُلُوبِ حِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْوَحْيُ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ، كَمَا أَنَّ الْغَيْثَ مَادَّةُ الْحَيَاةِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ الطَّيِّبَةَ حِينَ يَجِيئُهَا الْوَحْيُ تَقْبَلُهُ وَتَعْلَمُهُ، وَتَنْبُتُ بِحَسَبِ طِيبِ أَصْلِهَا وَحُسْنِ عُنْصُرِهَا.

وَأَمَّا الْقُلُوبُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا؛ فَإِذَا جَاءَهَا الْوَحْيُ لَمْ يَجِدْ مَحَلًّا قَابِلًا، بَلْ يَجِدُهَا غَافِلَةً مُعْرِضَةً أَوْ مُعَارِضَةً، فَيَكُونُ كَالْمَطَرِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَىٰ السِّبَاخِ وَالرِّمَالِ وَالصُّخُورِ، فَلَا يُؤَثِّرُ فِيهَا شَيْئًا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ الْآيَاتِ»(١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

«ذَكَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ لَوْ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ إِيمَانًا صَادِقًا صَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَاسْتَعْمَلُوا تَقْوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِتَرْكِ جَمِيعِ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ لَفَتَحَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَا بِهِ يَعِيشُونَ وَتَعِيشُ بَهَائِمُهُمْ فِي أَخْصَبِ عَيْشٍ، وَأَغْزَرِ رِزْقٍ مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ وَلَا تَعَبٍ، وَلَا كَدٍّ وَلَا نَصَبٍ»(٢).

إِنَّ مَفَاتِيحَ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِهِ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٢٥].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٢٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٣٦).

«﴿أَلَّا﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ الْخَفِيَّ الْخَبِيءَ فِي أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَأَنْحَاءِ الْأَرْضِ؛ مِنْ صِغَارِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبُذُورِ النَّبَاتَاتِ، وَخَفَايَا الصُّدُورِ، وَيُخْرِجُ خَبْءَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَإِنْبَاتِ النَّبَاتَاتِ، وَيُخْرِجُ خَبْءَ الْأَرْضِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَإِخْرَاجِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَرْضِ لِيُجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

«﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أَيْ حَالَةُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ وَتَسْتَمِرُّ لِمَنِ اتَّقَىٰ اللهَ -تَعَالَىٰ-، وَغَيْرُهُمْ -وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ بَعْضُ الظُّهُورِ وَالرَّاحَةِ- فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ وَقْتُهُ، وَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ»(٢).

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٠٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٣٣).

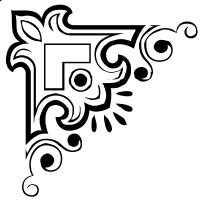

الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ عِنْدَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ

عِبَادَ اللهِ! الْعَطَاءُ مِنَ اللهِ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ، وَالرَّفْعُ مِنَ اللهِ، وَالْوَضْعُ مِنَ اللهِ(*)؛ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَبْتَلِي الْإِنْسَانَ بِالسَّرَّاءِ وَيَبْتَلِيهِ بِالضَّرَّاءِ، فَيَبْتَلِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالسَّيِّئَاتِ وَيَبْتَلِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالطَّاعَاتِ.(*/٢).

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ خَيْرًا ابْتَلَاهُ؛ فَقَدْ قِيلَ لِلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيُّمَا هُوَ خَيْرٌ لِلْعَبْدِ؛ أَنْ يُبْتَلَىٰ أَوْ أَنْ يُمَكَّنَ؟ قَالَ: لَا يُمَكَّنُ حَتَّىٰ يُبْتَلَىٰ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَصْنَعُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَىٰ عَيْنِهِ».

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ عَلِمَ هَذَا الْأَمْرَ، وَقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِبَعْضِ أَحْوَالِهِمْ.

لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَىٰ قَدَرِ رَبِّهِ؛ فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُعْتَرَضُ عَلَىٰ حُكْمِهِ كَمَا لَا يُعْتَرَضُ عَلَىٰ قَدَرِهِ، وَمَنِ اعْتَرَضَ أَدَّبَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنْ كَانَ مِنْ خُلَّصِ أَوْلِيَائِهِ، أَوْ عَذَّبَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مَقْطَعٍ بِعُنْوَان: «الْعَطَاءُ مِنَ اللهِ وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ».

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ: مَجَالَاتُ الِابْتِلَاءِ وَأَنْوَاعُهُ وَمَظَاهِرُهُ)، الْخَمِيسُ ٣ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ| ٦-١٠-٢٠٠٥م.

وَهَذَا يُونُسُ لَمَّا ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَا وَصَفَ، فَأُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، ثُمَّ ضَلَّ بِهِ وَهُوَ يُسَبِّحُ رَبَّهُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ فِي الظُّلُمَاتِ؛ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧]، ثُمَّ أَخْرَجَهُ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَعْدُ وَأَكْرَمَهُ وَمَنَّ عَلَيْهِ.

اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، كَانَ قَدْ أَوْعَدَ قَوْمَهُ الْعَذَابَ، فَخَرَجُوا إِلَىٰ الصَّعِيدِ تَائِبِينَ يَجْأَرُونَ بِالْمَتَابِ إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَمَّا تَأَخَّرَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ إِيَّاهُ، ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَكَانَ مَا كَانَ، اللهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.(*).

فَإِذَا كَانَ الْعَطَاءُ مِنَ اللهِ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللهِ؛ فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ، فَلِلرِّضَا مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَكَانَةٌ عَلِيَّةٌ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: الْغِنَىٰ» - الِاثْنَيْنِ ١٤ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٣هـ| ٤-٦-٢٠١٢م.

وَقَالَ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: جَزَاءَهُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَمُجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ، وَعَدَمِ وِلَايَتِهِمْ، بِأَنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَأَرْضَاهُمْ فَرَضُوا عَنْهُ، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ هَذَا بَعْدَ الرِّضَا بِهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا.

عَلَىٰ الْعَبْدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ رِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ ﷻ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ يُثْمِرُ رِضَا رَبِّهِ عَنْهُ.

وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ أَعْظَمَ رَاحَتِهِ وَسُرُورَهُ وَنَعِيمَهُ: فِي الرِّضَا عَنْ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ؛ فَإِنَّ الرِّضَا بَابُ اللهِ الْأَعْظَمُ، وَمُسْتَرَاحُ الْعَارِفِينَ، وَجَنَّةُ الدُّنْيَا، فَجَدِيرٌ بِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ تَشْتَدَّ رَغْبَتُهُ فِيهِ، وَلَا يَسْتَبْدِلُ بِغَيْرِهِ مِنْهُ.

إِنَّ السَّخَطَ بَابُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ، وَشَتَاتِ الْقَلْبِ، وَكَسْفِ الْبَالِ، وَسُوءِ الْحَالِ، وَالظَّنِّ بِاللهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ، وَالرِّضَا يُخَلِّصُهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ جَنَّةِ الدُّنْيَا قَبْلَ جَنَّةِ الْآخِرَةِ.

الرِّضَا يُوجِبُ لَهُ الطُّمَأْنِينَةَ، وَبَرْدَ الْقَلْبِ، وَسُكُونَهُ وَقَرَارَهُ، وَالسَّخَطُ يُوجِبُ اضْطِرَابَ قَلْبِهِ، وَرَيْبَهُ وَانْزِعَاجَهُ، وَعَدَمَ قَرَارِهِ.

الرِّضَا يُنْزِلُ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ الَّتِي لَا أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا، وَمَتَىٰ نَزَلَتْ عَلَيْهِ السِّكِّينَةُ؛ اسْتَقَامَ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُ، وَصَلَحَ بَالُهُ، وَالسَّخَطُ يُبْعِدُهُ مِنْهَا بِحَسَبِ قِلَّتِهِ وَكَثْرَتِهِ، وَإِذَا تَرَحَّلَتْ عَنْهُ السَّكِينَةُ تَرَحَّلَ عَنْهُ السُّرُورُ وَالْأَمْنُ

وَالدَّعَةُ وَطِيبُ الْعَيْشِ، فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ: تَنَزُّلُ السَّكِينَةِ عَلَيْهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهَا: الرِّضَا عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ.

الرِّضَا يَفْتَحُ لَهُ بَابَ السَّلَامَةِ، فَيَجْعَلُ قَلْبَهُ سَلِيمًا نَقِيًّا مِنَ الْغِشِّ وَالدَّغَلِ وَالْغِلِّ، وَلَا يَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

كَذَلِكَ وَتَسْتَحِيلُ سَلَامَةُ الْقَلْبِ مَعَ السَّخَطِ وَعَدَمِ الرِّضَا، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَشَدَّ رِضًا كَانَ قَلْبُهُ أَسْلَمَ.

الرِّضَا بِالْمَقْدُورِ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ، وَسَخَطُهُ مِنْ شَقَاوَتِهِ.

الرِّضَا يُوجِبُ لَهُ أَلَّا يَأْسَىٰ عَلَىٰ مَا فَاتَهُ، وَلَا يَفْرَحَ بِمَا آتَاهُ، وَذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ الْإِيمَانِ.

مَنْ مَلَأَ قَلْبَهُ مِنَ الرِّضَا بِالْقَدَرِ؛ مَلَأَ اللهُ صَدْرَهُ غِنًىٰ وَأَمْنًا وَقَنَاعَةً، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَمَنْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ الرِّضَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِضِدِّ ذَلِكَ، وَاشْتَغَلَ عَمَّا فِيهِ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ.

فَالرِّضَا يُفَرِّغُ الْقَلْبَ لِلَّهِ، وَالسَّخَطُ يُفَرِّغُ الْقَلْبَ مِنَ اللهِ.

فَإِذَا اسْتَعْمَلَ الْعَبْدُ الرِّضَا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فَقَدْ أَخَذَ بِالْحَظِّ الْوَافِرِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفَازَ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّىٰ.

إِنَّ الرِّضَا يُثْمِرُ سُرُورَ الْقَلْبِ بِالْمَقْدُورِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَطِيبَ النَّفْسِ وَسُكُونَهَا فِي كُلِّ حَالٍ، وَطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ عِنْدَ كُلِّ مُفْزِعٍ مُهْلِعٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ يُثْمِرُ بَرْدَ الْقَنَاعَةِ، وَاغْتِبَاطَ الْعَبْدِ بِقَسْمِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَفَرَحَهُ بِقِيَامِ مَوْلَاهُ

عَلَيْهِ، وَاسْتِسْلَامَهُ لِمَوْلَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَرِضَاهُ مِنْهُ بِمَا يُجْرِيهِ عَلَيْهِ، وَيُثْمِرُ تَسْلِيمَهُ لَهُ الْأَحْكَامَ وَالْقَضَايَا، وَاعْتِقَادَ حُسْنَ تَدْبِيرِهِ، وَكَمَالَ حِكْمَتِهِ، وَيُذْهِبُ عَنْهُ شَكْوَىٰ رَبِّهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ وَتَبَرُّمَهُ بِأَقْضِيَتِهِ.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «الرَّاضِي لَا يَتَمَنَّىٰ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ».(*).

فَاخْتِيَارُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَكَ خَيْرٌ مِنَ اخْتِيَارِكَ لِنَفْسِكَ لَوْ كُنْتَ مُخْتَارًا، فَسَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي التَّسْلِيمِ للهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ، وَالسَّلَامَةُ كُلُّ السَّلَامَةِ فِي التَّسْلِيمِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

اللَّهُمَّ رَضِّنَا بِقَضَائِكَ وَقَدَرِكَ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ وَالِدِينَا، وَأَوْزِعْنَا أَنْ نَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، إِنَّا تُبْنَا إِلَيْكَ وَإِنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُلَاصَةُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرِينَ: مَنْزِلَةُ الرِّضَا)، الْأَحَدُ ١٩ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٤١هـ| ١٢-٤-٢٠٢٠م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصَّبْرُ عَلَىٰ الْبَلَاءِ»، ٩-٨-٢٠٠٢م.

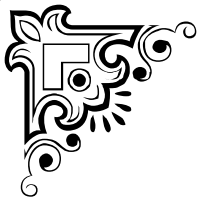

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ أَجَلُّ الْغَايَاتِ ٤

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْغَنِيُّ الْجَوَادُ ٥

عَطَاءُ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ٨

جُمْلَةٌ مِنْ أَعْظَمِ عَطَاءَاتِ الرَّبِّ الْمَنَّانِ ٢٢

افْتِقَارُ جَمِيعِ الْعِبَادِ إِلَىٰ عَطَاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ٣٨

قُدْرَةُ اللهِ ﷻ الْمُطْلَقَةُ فِي الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ٤٧

حِكْمَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْبَالِغَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ ٥٥

حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام عِنْدَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ ٦٧

رُبَّمَا كَانَ الْمَنْعُ رَحْمَةً وَالْعَطَاءُ اسْتِدْرَاجًا! ٧٣

طَلَاقَةُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ ٨٢

التَّقْوَىٰ وَحُسْنُ التَّوَكُّلِ سَبِيلُ تَحْصِيلِ عَطَاءِ وَرَحْمَةِ الرَّحْمَنِ ٩٢

الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ عِنْدَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ ٩٥